الحديث الحادى والثلاثون

عن أبى العباس سهل بن سعد الساعدى رضى اللّه عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول اللّه دلنى على عمل إذا عملته أحبنى اللّه وأحبّنى الناس ؟ فقال: « **ازهد فى الدنيا يحبك اللّه ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس** » حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة .

ترجمة الراوى :

هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلب بن حارثة بن عمرو بن الخزرج ابن ساعدة بن كعب بن الخزرج الساعدى الأنصارى الخزرجى ويكنى بأبى العباس ، ويعد هو وأبوه ــ رضى اللّه عنهما ــ من الصحابة المشهورين .

توفى النبى ﷺ وهو ابن خمس عشرة سنة ، وهو من الذين غيّر النبى ﷺ أسماءهم حيث كان اسمه ــ حزنا ــ فسمّاه النبى ﷺ : سهلا ــ والحزن ضد السهل، بلغت مروياته مائة وثمانية وثلاثون حديثا ، اتفق البخارى ومسلم منها على ثمانية وعشرين وانفرد البخارى بأحد عشر .

توفى سنة ثمان وثمانين ، وكان آخر من مات بالمدينة من الصحابة على قول ، وقيل : جابر .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

التصوف السنى :

أ ــ الزهد فى اللغة : هو الإعراض عن الشىء احتقارا له .

وفى اصطلاح المتصوّفين : هو ترك ما زاد على الحاجة من الحلال المتيقن حلّه وهو أخص من الورع؛ لأنه ترك ما اشتبه فى حله ،والورع سبب فى أصل محبة اللّه تعالى ،

دلنى : ارشدنى .
على عمل : عظيم .
أحبنّى اللّه : محبّة اللّه هى رضاه .
أحبنى الناس : فأعيش معهم عيشة راضية .
ازهد فى الدنيا : الزهد هو ترك ما زاد على الحاجة من الحلال المتيقن حله .

والزهد سبب لنيل عظيم المحبة ، والزهد فى الدنيا ليس معناه أبدا الخلود إلى الراحة والركود وإيثار الجمود والاستكانة والقعود عن العمل وطلب الرزق الحلال كما يحلو لبعض العجزة والكسالى أن يفسروه بذلك .

ولكنّ الزّاهد الحقيقى هو من أتتْه الدنيا بخيراتها، ولم تشغله عن ربّه ولم تستهوه وتستعبده ، بل ملك زمام نفسه واستصغرها فى عينه .

إذًا لا يتصوّر الزهد من الفقير المعدم الذى لا مال له ، فقد قيل لابن المبارك : يازاهد ، قال : الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، أما أنا ففيم زهدت؟ !

ولهذا قال كثير من السلف : إن عمر بن عبد العزيز كان أزهد من أُوَيس ونحوه كذا قال أبو سليمان وغيره .

إذًا فالزهد فى حقيقته من أعمال القلوب لا من أعمال الجوارح ؛ ولهذا كان أبو سليمان يقول : لا تشهد لأحد بالزهد فإن الزهد فى القلب ، وعلامات الزاهد ثلاث:

أحدهما : أن يكون بما فى يد اللّه أوثق منه بما فى يد نفسه .

الثانى : أن يكون العبد إذا أصيب بمصيبة فى دنياه من ذهاب مال أو ولد أو غير ذلك أرغب فى ثواب ذلك مما ذهب منه من الدنيا أن يبقى له .

الثالث : أن يستوى عند العبد حامده وذامّه فى الحق .

ب ــ محبة الناس تابعة لمحبة اللّه ؛ لأن محبة اللّه هى رضاه عن العبد المحبوب ، ولا يرضى اللّه على عبد إلا بطاعته وصدقه وإخلاصه واجتنابه للمنهيات والمحرمات، وهذا ما يزرع الودّ فى قلوب الناس هذه من ناحية ، ومن ناحية أخرى ،فإن القلوب بيد الرحمن يقلبها كيف شاء ، فإذا أحب عبداً ألقى محبته فى قلوب خلقه ، لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** ﴾ [مريم : ٩٦]، وقوله ﷺ: «إن اللّه تعالى إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إنى أحبّ فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادى فى السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبوه . . .»(١).

العقائدية :

« ازهد فى الدنيا يحبك اللّه » .

---

(١) رواه مسلم .

إن زهدك فى الدنيا معناه إيمانك الراسخ باسم من أسماء المولى ــ عز وجلّ ــ ألا وهو : الرّزاق ، ولا يكتمل إيمان المؤمن ما لم يثق بأن اللّه ضمن أرزاق مخلوقاته كلها وتكفلّ بها قال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : ٦] .

وقال سبحانه : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٢] ، وقال أيضا : ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ ﴾ [العنكبوت : ١٧] .

وللّه در أبى الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام من مؤمن بلغ إيمانه الدرجات العلا ولا غرو فى ذلك إنه كما وصفه ربّه ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل : ١٢] حيث قال الحق تعالى على لسانه : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : ٧٨ ــ ٨٠] .

وقال الحسين : إن من ضعف يقينك أن تكون بما فى يدك أوثق منك بما فى يد اللّه عز وجل .

وعن على وابن مسعود قالا : إن أرجى ما يكون الرزق إذا قالوا :ليس فى الدنيا دقيق . وقال مسروق : إن أحسن ما أكون ظنا حين يقول الخادم : ليس فى البيت قفيز من قمح ولا درهم . وقال الإمام أحمد : أسرّ أيامى إلىّ يوم أصبح وليس عندى شىء، وقيل لأبى حازم الزّاهد : ما مالك ؟ قال : لى مالان لا أخشى معهما الفقر: الثقة باللّه، واليأس مما فى أيدى الناس . وقيل له ذات يوم : أما تخاف الفقر ؟ فقال : أنّى أخاف الفقر ومولاى له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى.

الفقهية :

يجب الزهد فى الحرام عموما كالزهد فى الشرك والأوثان وعبادة غير الرحمن، وهذا أفضل درجات الزهد ويليه فى الأفضلية الزهد فى الحرام كله، كالزهد فى أموال الناس؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾ [البقرة:١٨٨].

وكالزهد فى أعراض الناس وحرماتهم وفى الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، وكالزهد فى الغيبة والنميمة ، ويأتى فى الدرجة الثانية الزهد غير الواجب وهو الزهد فى الحلال وهى درجة المتقين العابدين .

النفسية :

سبق وأن قلنا : إنه إذا استوى عند العبد حامده وذامّه فى الحق ، فذلك من علامات الزهد فى الدنيا وقلة الرغبة فيها ؛ لأن الزاهد لا يعانى عُقدًا نفسية ولا عيوبا أخلاقية ــ أو هكذا يفترض فيه ــ لذلك فإنه لا يسعى لالتقاط مدح المادحين وإطراء

الشاكرين ليغطى عجزه ويكمل نقصه ولكن هيهات ! !

وربما أدى هذا العيب الخطير بصاحبه إلى ترك كلمة الحق أو نبذ المعروف؛ لأنه لا يجلب له مدحا، وربما سعى بنفسه إلى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف مخالفا بذلك دينه ومعتقده، ملقيا بنفسه فى النار وبئس القرار طمعا فى ثناء أهل المنكر عليه ، وجلبا لرضاهم مهما كلفه ذلك غير مبال بسخط اللّه وغضبه ، عن جابر بن عبد اللّه رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ: «من أسخط اللّه فى رضا الناس سخط اللّه عليه وأسخط عليه من أرضاه فى سخطه، ومن أرضى اللّه فى سخط الناس رضى اللّه عنه وأرضى عنه من أسخطه فى رضاه حتى يزينه، ويزين قوله وعمله فى عينه»(١). وقد أثنى الله تعالى على الذين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [المائدة : ٥٤] .

مثلما ذم الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فقال : ﴿ **لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران : ١٨٨] .

الاجتماعية :

الوهن والضعف والقصور الذى تعانى منه المجتمعات الإسلامية اليوم مرده إلى الإفراط فى محبة الدنيا إلى حدّ العبادة والاستمساك بأهداب هذه الحياة ، حتى أضحى المسلم خائر القوى مهزوز الشخصية ضعيف الإرادة لا يحرّك ساكنا وإن أقيمت الدنيا من حوله ، أو هزّت الأرض من تحت قدمه .

نعم ، لقد ديست كرامتنا وغصبت أراضينا وأهينت مقدساتنا واسترخصت دماؤنا وضاعت قدسنا ، فماذا فعلنا أو ما عسانا نفعل بهذه الآلاف المؤلفة التى استولى عليها اليأس، ووقر فى ذاكرتها أن لا أحد يجرؤ أو يستطيع مهما حاول أن يعيد قدسنا ويردّ كرامتنا ويسترجع هيبتنا ؟ ! ولعل سائلا يقول معترضا :ولكن أين السلاح والعتاد ؟ أين الصواريخ المتطورة . . والقنابل الذرّية . . و . . و ؟

ولكنى أقول ــ وكل عاقل يشاطرنى الرأى ــ : إننا نملك الكثير ومهما ملكنا من

(١) رواه الطبرانى .

كل ما ذكرنا القناطير المقنطرة فلن تجدينا شيئا ؛ لأننا لا نملك القوّة التى تستعمل تلك الأجهزة والمعدات ، وليس هذا من قبيل التعجيز بل الحق أقول ؛ لأن أزمتنا معنوية قبل أن تكون ماديّة ، وإيمانية قبل أن تكون ذرّية ، لقد بعث اللّه فى قلوبنا الوهن الذى هو حبّ الدنيا وكراهية الموت كما عرفه لنا الرسول الكريم صلوات ربى وسلامه عليه حتى أصبح المسلم ــ أو هكذا يجب أن نسميه ــ يبيع دينه بعرض من الدنيا يسترخص كرامته لا حياته ، ويبذل كل شىء مقابل أن يعيش مهما كانت هذه المعيشة .

لقد عالج القرآن الكريم هذه النفوس الضعيفة الخائرة بقوله : ﴿ **فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ** ﴾ [النساء : ١٠٤] .

إذًا يجب ألا يكون أهل الباطل أحرص منا على القتال ، لأننا فى الألم سواء ، وكذا فى المشقة والهول ، ولكننا نرجو عند اللّه ما لا يرجون ونرتقب مالا يرتقبون .

هكذا إذ يجب أن يكون التفكير ؛ لأن منطلقنا غير منطلقهم ، ومبتغانا غير مبتغاهم ، وتصورنا للموت ولما بعده غير تصورهم .

فالمسلم لا يريد إلا إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة،وكلاهما فى حسبانه نصر.

فقه الدعوة

إن قوّة تأثير الداعية فيمن يدعوهم تعتمد أساسا على محبتهم له، وإكبارهم إيّاه ، وثقتهم به ، ولن يتأتى له ذلك ما لم يتنزه عن سفاسف الدنيا ، ويترفع عما فى أيديهم؛ لأن ذلك هو الكفيل ببقاء عزته وكرامته ، وأما إذا دنس نفسه وتطلع إلى أرزاق الناس وممتلكاتهم ، فإنه لا يضرّ نفسه فحسب ، بل ويزهد المجتمع فى دعوته ويسقطها من عينه شأن كثير ممّن تصدوا للدعوة الإسلامية فى العالم الغربى تحقيقا لأغراض مادية وأهداف شخصية .

من هؤلاء من مكث السنين الطوال ينوم الناس ويخدّرهم ويموّه عليهم ببهرجته حتى إذا آنسوه تسلل بأموال طائلة ودور هائلة، وسيارات فخمة، وأرصدة ضخمة. . . ومنهم. .و. . حتى أضحى من اليقين عند بعض المسلمين فى تلك الديار الاعتقاد أن كل داعية محتال ينصب شراكه بـ ــ قال اللّه ، وقال رسوله ــ فإنا للّه وإنا إليه راجعون .

الحديث الثانى والثلاثون

عن أبى سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدرى رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: « **لا ضرر ولا ضرار** » حديث حسن رواه ابن ماجه والدارقطنى وغيرهما مسندا ، ورواه مالك فى الموطأ مرسلا ، عن عمرو بن يحيى ، عن أبيه، عن النبى ﷺ ، فأسقط أبا سعيد ، وله طرق يقوى بعضها بعضا .

تخريج الحديث :

حديث أبى سعيد لم يخرجه ابن ماجه ، وإنما خرجه الدارقطنى والحاكم والبيهقى من رواية عثمان بن محمد بن عثمان بن ربيعة : حدثنا الدراوردى عن عمرو بن يحيى المازنى ، عن أبيه عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى ﷺ قال: «لا ضرر ولا ضرار، من ضار ضرّه اللّه ، ومن شاق شق اللّه عليه » .

وقال الحاكم : صحيح الإسناد على شرط مسلم ، وقال البيهقى : تفرّد به عثمان عن الدراوردى ، وخرجه مالك فى الموطأ عن عمرو بن يحيى عن أبيه مرسلا .

وأما ابن ماجه فخرجه من رواية فضيل بن سليمان : حدثنا موسى بن عقبة ، حدثنا إسحاق بن يحيى بن الوليد عن عبادة بن الصامت ؛ أن رسول اللّه ﷺ قضى أن لا ضرر ولا ضرار .

ترجمة الراوى :

هو أبو سعيد سعد بن مالك بن سنان بن عبيد ، وقيل :عبد بن ثعلبة بن عبيد بن

لا : النافية للجنس واسمها بعدها وخبرها محذوف ويقدر تقديران :

ـ فإن قدّر ـ جائزان ـ كان الكلام إخبارا منه ﷺ بأن الضرر والضرار غير جائزين شرعا .

ـ وإن قدّر ـ موجودان ـ كان المقصود منه النهى أى **لا** توجد والضرر والضرار، وعلى التقديرين فالحديث يدل على تحريم الضرر والضرار .

الضرر : أن تلحق الأذى بغيرك ابتداء : فى نفسه ، أو عرضه ، أو ماله ، وقيل :الضرر : أن يدخل على غيره ضررا بما ينتفع هو به ، وقيل أيضا : الضرر أن يضر به من لا يضره .

الضرار : أن تلحق الأذى بمن ألحقه بك على سبيل المقابلة؛ وهذا لا يحرم إلا إذا زاد عن حقه فى القصاص.

وقيل: أن يدخل على غيره ضررا بلا منفعة له به كمن منع ما لا يضره ويتضرّر به الممنوع ، ورجح هذا القول طائفة منهم ، ابن عبد البرّ وابن الصّلاح وقيل فيه أيضا : الضرر أن يضر به من لا يضرّه.

الأبجر، وهو خدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج الأنصارى ، وكان أبوه من الصحابة الكرام الذين شهدوا معركة أحد واستصغر يومها فردّه رَسول اللّه ﷺ إلا أنّه كان من بين الذين خرجوا ليتلقوا رسول اللّه ﷺ حين رجوعه من الغزوة فنظر إليه رسول اللّه ﷺ وقال : «سعد بن مالك ؟» فقال : نعم بأبى أنت وأمى يا رسول اللّه ، فدنا منه وقبل ركبته ، فقال : «آجرك اللّه فى أبيك» ؛ لأنه كان من شهداء أحد ، وكان أبو سعيد من نجباء الصحابة ومن حفاظهم وعلمائهم شهد مع رسول اللّه ﷺ اثنتى عشرة غزوة أولها الخندق ، وكان من الرواة المشهورين وهو معدود من أهل الصفة ، روى عنه أنه قال : أصبحت وليس عندنا طعام وقد ربطت حجرا من الجوع ، فقالت امرأتى : ائت النبى ﷺ فاسأله فقد أتاه فلان فأعطاه وفلان فأعطاه فقلت : لا ، حتى لا أجد شيئا ، فطلبت فلم أجد شيئا فأتيت النبى ﷺ وهو يخطب فأدركت من قوله : « من يستغن يغنه اللّه ، ومن يستعفف يعفه اللّه » قال : فما سألت أحدا بعده وما زال اللّه يرزقنا حتى ما أعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالا منا .

قلت : كان أبو سعيد من حفاظ الصحابة وعلمائهم حيث بلغت مروياته ألفا ومائة وسبعين حديثا ، اتفق البخارى ومسلم منها على ستة وأربعين ، وانفرد البخارى بستة عشر، ومسلم باثنين وخمسين، توفى بالمدينة سنة أربع وسبعين عن عمر يناهز أربع وتسعين سنة ودفن رضى اللّه عنه بالبقيع .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

الأصولية :

« لا ضرر ولا ضرار » .

استنبط الأصوليّون من هذا الحديث قاعدة أصولية شهيرة ، وهى :(الضرر يزال) وفرعوا عليها كثيرا من المسائل كالرد بالعيب ، وثبوت الخيار فى البيع ، ودفع الصائل، وقتال المشركين والبغاة ، وفسخ النكاح بالعيوب .

ويتعلق بهذه القاعدة ست قواعد :

الأولى : الضرورات تبيح المحظورات ؛ ولذا جاز أكل الميتة للمضطر ، والخمر للغاص .

الثانية : ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها ، فلا يأكل المضطر إلا ما يسد رمقه، قال تعالى: ﴿ **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ** ﴾ [البقرة : ١٧٣] .

الثالثة : الضرر لا يزال بضرر يساويه ، فلا يأكل مضطر طعام مضطر آخر .

الرابعة : إذا تعارضت مفسدتان روعى أعظمهما ضررا بارتكاب أخفهما ضررا .

الخامسة : درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح .

السادسة : قد تنزل الحاجة العامة والخاصّة منزلة الضرورة فتبيح المحظور ، والعامة كجواز الإجارة مع عدم المنافع وقت العقد . والجعالة مع ما فيها من الجهالة .

الفقهية :

١ ــ المضارة فى الوصية :

قال تعالى : ﴿ **مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ** ﴾ [النساء : ١٢] وفى الحديث عن أبى هريرة مرفوعا : « إن العبد ليعمل بطاعة اللّه ستين سنة ثم يحضره الموت فيضار فى الوصية فيدخل النار»، ثم تلا : ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ** ﴾ إلى قوله: ﴿**وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ [النساء : ١٣، ١٤] .

والإضرار فى الوصية يتمثل فى صورتين :

ــ **الصورة الأولى** : تخصيص بعض الورثة بزيادة على نصيبه الذى قدره اللّه وفرضه، وبهذا يتضرر بقية الورثة وفى هذا يقول ﷺ :«إن اللّه قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث » .

ــ **الصورة الثانية** : ويحدث الضرر إذا وصى الموصى بأكثر من ثلث لأجنبى غير وارث لأنه ينقص حقوق الورثة ، ومن هنا فوصيته غير ناجزة ما لم يجزها الورثة قال عليه السلام : « . . . . الثلث والثلث كثير » .

٢ ــ المضارة فى الرجعة فى النكاح :

كان الطلاق فى الجاهلية بلا حدود وكان الرجال يستغلونه تعسّفا وتلاعبا بالمرأة ، فأنزل اللّه تعالى : ﴿ **الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ** ﴾ [البقرة : ٢٢٩] وسبب نزول هذه الآية كما ذكره ابن كثير : أنه كان الرجل فى الجاهلية يطلق امرأته ما شاء من الطلاق ثم يراجعها قبل أن تنقضى عدتها ولو طلقها ألف مرة كان له الحق فى مراجعتها ، فعمد رجل لامرأته فقال لها : لا آويك ولا أدعك تحلين ، قالت : وكيف ؟ قال : أطلقك فإذا دنا مضى عدتك راجعتك، فشكت المرأة أمرها للنبى ﷺ فأنزل اللّه: ﴿ **الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ**﴾ الآية.

وقال تعالى : ﴿ **فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ** ﴾ [البقرة : ٢٣١] ،وقال : ﴿ **وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا** ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

وذهب مالك إلى أن من راجع امرأته قبل انقضاء عدتها ثم طلقها من غير مسيس أنه إن قصد بذلك مضارتها بتطويل لم تستأنف العدة وبنت على ما مضى منها ، وإن لم يقصد بذلك استأنفت عدة جديدة .

وقيل : تبين مطلقا وهو قول عطاء وقتادة والشافعى فى القديم وأحمد فى رواية، وقيل : تستأنف مطلقا وهو قول الأكثرين منهم أبو قلابة والزهرى والثورى وأبو حنيفة والشافعى فى الجديد ، وأحمد فى رواية وإسحاق وأبو عبيدة وغيرهم .

٣ ــ المضارة فى الإيلاء :

وهو أن يحلف الرجل على امتناعه من وطء زوجته ومدّته أربعة أشهر ؛ لقوله تعالى : ﴿ **لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة : ٢٢٦ ، ٢٢٧] ، فإن فاء ورجع إلى الوطء كان ذلك توبته وإلا طلق وفق مذهب إمامنا مالك رضى اللّه عنه ، وهو قول على وابن عمر رضى اللّه عنهما .

وكما أن الزوج لو أطال السفر من غير عذر وطلبت امرأته قدومه فأبى فقال مالك وأحمد وإسحاق : يفرق الحاكم بينهما .

٤ ــ المضارة فى الرضاع :

قال تعالى : ﴿ **لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ** ﴾ [البقرة : ٢٣٣] قال مجاهد: لا يمنع أمّه أن ترضعه ليحزنها بذلك . وقال عطاء وقتادة والزهرى وسفيان والسدّى وغيرهم : إذا رضيت ما يرضى به غيرها فهى أحق به .

ويدخل فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ** ﴾ أن المطلقة إذا طلبت إرضاع ولدها بأجرة مثلها لزم الأب إجابتها إلى ذلك ، وسواء وجد غيرها أو لم يوجد ، هذا منصوص الإمام أحمد ، فإن طلبت زيادة على أجرة مثلها زيادة كثيرة ووجد الأب من يرضعه بأجرة المثل لم يلزم الأب إجابتها إلى ما طلبت لأنها تقصد المضارّة .

٥ ــ المضارة فى البيع :

خرج الإمام أبو داود من حديث على بن أبى طالب أنه خطب النّاس فقال : إنه سيأتى على النـاس زمانٌ عضـوضٌ يعض الموسر على ما فى يديه ولم يؤمر بذلك . قال تعالى : ﴿ **ولا تنسوا الفضل بينكم** ﴾ [البقرة : ٢٣٧] ويبايع المضطرون وقد نهى ﷺ عن بيع المضطر .

تطبيق

١ ــ طالت أيدى الكثير من مسلمى العصر إلى المحرمات ، وسمحت لنفسها أن تتخطى حدودها غير مكترثة بما تفعل محتجة بالقاعدة الأصولية : الضرورات تبيح المحظورات ، متناسية القاعدة الشائعة القائلة : ما أبيح للضرورة يقدّر بقدرها ، فلا يجوز الاسترسال فى الشرب بالنسبة للغاص الذى لم يجد ما يدفع به غصّته غير الخمر .

نعم ، يجوز للمضطر ، والمضطر هنا هو الغاص الذى خاف على نفسه الهلاك، ولم يجد ماء ونحوه أن يشرب جرعة تزيل ما به حفاظا على روحه ، وفى هذا ينص الشيخ خليل بن إسحاق المالكى فى مصنّفه : وجاز لإكراهٍ وإساغة لا دواء .

كما لا يجوز الأكل من الجيفة وغيرها أكثر من سدّ الرمق بالنسبة للمضطر ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : ١٧٣] .

٢ ــ فى أيامنا هذه أصبح التجاور فى كثير من الأحيان لا معنى له فلا يتخذ الجار حيطته وحذره أكثر ممّا يتخذها من جاره فى سكناه أو فى معمله ، أو فى مزرعته ، فى حين أن الإسلام ينزع الإيمان من رقبة من لا يأمن جاره بوائقه كما نصّ على ذلك رسول الله ﷺ .

والإسلام فى تشريعاته عمل على أن لا يضار أحد أحداً بأى حال من الأحوال ، وأوجه المضارة بين الجار وجاره كثيرة غير أننا نورد بعضها فى الأمثلة التّالية :

أ ــ كأنْ يكونَ غرضُ المضار صحيح بحيث يتصرّف فى ملكه بما فيه مصلحة له فيتعدّى ذلك إلى ضرر غيره .

فإن كان على غير الوجه المعتاد مثل أن يؤجّج فى أرضه نارا فى يوم عاصف فيحترق ما يليه فإنهّ متعدّ بذلك وعليه الضمان .

وإن كان على الوجه المعتاد ففيه للعلماء قولان مشهوران : أحدهما : لا يمنع من ذلك وهو قول الشافعى وأبى حنيفة وغيرهما . والثانى : المنع وهو قول أحمد ووافقه إمامنا مالك فى بعض الصور ، فمن صور ذلك أن يفتح كوّة فى بنائه العالى مشرفة على جاره ، ومنها أن يحفر بئرا بالقرب من بئر جاره فيذهب ماؤها فإنها تطم فى ظاهر مذهب مالك وأحمد .

ومنها أن يكون له ملك فى أرض غيره يتضرر صاحب الأرض بدخوله إلى أرضه، فإنّه يجبر على إزالته ليندفع به ضرر الدخول ، خرجه أبو داود فى سننه من حديث أبى جعفر محمد بن على أنه : حدّث سمرة بن جندب أنّه كان له عذق من نخل فى حائط

رجل من الأنصار ومع الرجل أهله ، وكان سمرة يدخل إلى نخله فيتأذّى به وشقّ عليه فطلب إليه أن يقابله فأبى ، فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له فطلب إليه النبى ﷺ أن يبيعه فأبى، فطلب إليه أن يناقله فأبى، قال: « فهبه له ولك كذا وكذا » أمراً رغّبه فيه، فأبى فقال : أنت مضارّ ، فقال النبى صلى اللّه عليه وآله وسلم : « اذهب فاقلع نخله».

ب ــ الصورة الثّانية : أن يضارّ الجار جاره من الانتفاع بملكه والارتفاق به ، فإن كان ذلك يضر بمن انتفع بملكه فله المنع كمن له جدار واه لا يحمل أن يطرح عليه خشب .

وأمّا إن لم يضر به فهل يجب عليه التّمكين ويَحْرم عليه الامتناع أم لا ؟

ذهب الإمام مالك ــ رحمه اللّه ــ إلى المنع ، وذهب أحمد فى طرح الخشب على جدار دار جاره إلى أنّه لا يجوز ، ووافقه الشافعىّ فى القديم وإسحاق وأبو ثور وداود وابن المنذر وعبد الملك بن حبيب المالكى وحكاه مالك عن بعض قضاة المدينة .

وفى الصّحيحين عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال : « لا يمنَعنّ أحدكم جاره أن يغرز خشبه على جداره » قال أبو هريرة : مالى أراكم عنها معرضين ، واللّه لأرمين بها بين أكتافكم ، وقضى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه على محمد بن مسلمة أن يجرى ماء جاره فى أرضه ، وقال : لتمرنّ به ولو على بطنك .

والإجبار على إجراء الماء فى أرض جاره إذا أجراه فى قناة فى باطن أرضه كما هو عليه مذهب أبى ثور .

الحديث الثالث والثلاثون

عن ابن عباس ــ رضى اللّه تعالى عنهما ــ أن رسول اللّه ﷺ قال : «**لَوْ يُعْطى الناس بدعواهم لادَّعى رجال أموال قوم وَدِمَاءهُم ، لكن البينة على المدعى واليمين على من أنكر**» حديث حسن ، رواه البيهقى وغيره هكذا . وبعضه فى الصحيحين .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

الاجتماعية :

تدور الأحكام الشرعية كلها على حفظ الكليات الست: المال ، الدين ، الروح ، العقل ، النسل ، العرض .

ويولى الإسلام عناية كبرى بالعرض ــ بالخصوص ــ حيث شرع الكثير من الأحكام الفقهية التى تضمن للمرء شرفه وتصون عرضه انطلاقا من مبدأ التكريم الذى حظى به الإنسان دون بقية المخلوقات الأخرى . قال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا**﴾ [الإسراء: ٧٠].

والإسلام يتحدى جميع الفلسفات والنظم الاجتماعية أن ترعى حرمة الإنسان كإنسان كما يحترمها هو ! .

ومهما أجهد المحللون الاجتماعيون أنفسهم ، ما استطاعوا الوصول إلى ما حققه الإسلام سبيلا؛ لأن جهدهم قاصر ، واجتهاداتهم يجانبها الصواب فى كثير من الأحيان. ولا زال الإنسان فى الغرب كالآلة تقاس كرامته بقدر إنتاجه ، أو بما يملك فى حين أنّنا نجد ديننا يوجب هذه الحدود:

١ ــ حد الرجم والجلد : فى حق الزانى بحالتيه المحصن وغير المحصن صونا للأعراض وحفظا للأنساب .

٢ ــ حد القذف : فالذى يتّهم محصنة غافلة، أو عفيفا طاهرا بهذه الريبة ــ تهمة

الدعوى : لغة : الطلب ، وشرعا : إخبار بحق لك على غيرك عند حاكم .
المدعى : من خالف قوله الظاهر .
المدعى عليه : عكسه .

الزنا ــ يعتبر متعد على الكرامة والشرف ، وبموجبه يجلد صاحبه تأديبا له وتعزيرا وتبرئة للمعتدى عليه .

٣ ــ حرمة الغيبة والبهتان والإفك : ــ فى الإسلام ــ تضع سدًا منيعا لشخصية كل مسلم .

وها هو رسول اللّه ﷺ فى هذا الحديث : « البينة على من ادّعى » يعتبر المدعى فى موقف ضعف فلا يجوز له أن يتحامل على من ادّعى عليه وليس للقاضى بأى حال من الأحوال أن يسقط من كرامته أو يوجه اللوم له أو يوبّخه.

وما دام موقف المدعى كذلك اشترط الرسول الكريم ﷺ أن يعزز دعواه ببيّنة ساطعة وحجة واضحة ؛ بل والأبعد من هذا فإن لإمامنا فى هذا قولا طريفًا ورأيًا حكيما ، قال مالك : إنما تجب اليمين على المنكر إذا كان بين المتداعيين نوع مخالطة خوفا من أن يتبذل السفهاء على الرؤساء بطلب أيمانهم . وعنده : ولو ادعى على رجل أنه غصبه أو سرق منه ولم يكن المدعى عليه متهما بذلك لم يستحلف المدعى عليه. بل عنده أن المدعى عليه إن كان من أهل الفضل أو ممن لا يشار إليه بذلك أدّب المدعى.

الاقتصادية :

لننظر كيف حفظ الإسلام الأموال ورعاها وصانها من الضَّياع والتلف فحد حدودا إذا أقيمت فى المجتمع الإسلامى تفشى الأمن على الأموال والمودعات ، وهذا ما يدفع بعجلة التكافل الاجتماعى ويحقق الأمن الغذائى والرخاء الاقتصادى عموما .

من تلك الحدود القطع ليد السارق ، والقتل للغاصب المحارب ، وها هو الإسلام يقعد قاعدة تشريعية جليلة بموجبها يطمئن المالك على ملكه ؛ لأن محض الدعاوى العارية من البينة الصادقة والدليل القوى لا يلقى لها الإسلام أدنى اعتبار فى حالة حلف المدعى عليه طبعا .

القانونية :

إن التقدم التشريعى الذى أحرزه نظام القضاء فى الإسلام منذ أربعة عشر قرنا لم تحقق أوربا معشاره . وعلى سبيل المثال لا الحصر إليك هذا التباين الكبير فى النظر إلى المتهم .

فالإسلام ينظر إلى أنّ المتهم برىء ما لم تثبت إدانته بالبينة ، ومن ثم فلا يسعى القضاء الإسلامى إلى استنطاقه بالقوّة وأخذ اعترافاته عنوة تحت أسواط التعذيب والتنكيل .بينما تنظر بعض القوانين الأرضية إلى المتهم وكأنه مدان حتّى تثبت براءته ، إن لم نقل : ولو ثبتت! .

فقه الدعوة

إن مؤهلات الدعوة إلى الإسلام لا تقف عند الفقه فى الشريعة والبلاغة فى العربية، والفصاحة فى اللسان ، بل تتطلب ذكاء وفطنة لا أقول : ألمعية ؛ لأنه ــ أى الداعية ــ يخاطب أناسا ويدعو فئات تتفاوت ثقافاتهم وتتفاوت مستوياتهم الفكرية ، وربما اعترضته خصومات وخلافات ، فلا يدرى بم يحكم إلا إذا كان عالما بالشريعة الإسلامية ، ولا لمن يحكم إلا إذا كان حكيما فى طرحه لاستفساراته ، وذكيا فى متابعاته وملاحظاته ولله در ابْن فرحون الذى أفاض القوْل فى هذا فى كتابه (تبصرة الحكام) .

وللعبرة أسوق هذا المثال الذى جاء فى الحلية فى ترجمة عكرمة قال : كانت القضاة فى زمن بنى إسرائيل ثلاثة فمات أحدهم فولى مكانه غيره ، ثم قضوا ما شاء الله أن يقضوا ، ثم بعث الله تعالى لهم ملكا يمتحنهم فوجد رجلا يسقى بقرة على ماء وخلفها عجلة ، فدعاها وهو راكب فرسا فتبعتها العجلة فتخاصما ، فقالا : بيننا القاضى فجاءا إلى القاضى الأول ، فدفع إليه الملك درّة كانت معه وقال له : احكم بأن العجلة لى ، وقال : بماذا أحكم ؟ قال : ارسل الفرس والبقرة والعجلة ؛ فإن تبعت الفرس فهى لى ، فأرسلها فتبعت الفرس فحكم له بها .

وأتى إلى القاضى الثانى فحكم له كذلك وأخذ درّة ، وأما القاضى الثالث فدفع له الملك درّة وقال له : احكم بها ، فقال : إنى حائض ! فقال الملك : سبحان الله أيحيض الذكر ؟ ! فقال القاضى : سبحان الله أتلد الفرس بقرة ؟ ! وحكم بها لصالحه.

تطبيق

١ ــ بعض من أغناهم الله سبحانه أغواهم الشيطان ، فسخروا ما يملكون وما يتمتعون من سمعة وجاه للادعاء على الذين لا حول لهم ولا قوة ظلما وعدوانا واستكبارا فى الأرض ، قال تعالى : ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا** ﴾ [القصص : ٨٣] واستعانوا فى تلفيق دعاويهم وتحقيق مآربهم بمن يمتهنون المحاماه استرزاقا أولئك الذين يتفننون فى حَبْك العبارات وسبكها ليجعلوا الباطل حقّا ، والحق باطلا ، ولا يكونون مع الحق ، وهذا الذى يفترض فيهم بل الكثير الكثير منهم يدور مع الدينار حيث دار ، ولله درّ القائل :

ما لقومى اليوم قد جاروا ... وعلى الدينار داروا

وله صلوا وصاموا ... وله حجوا وزاروا

لـو رأوه فـوق الثّريّـا ولهم ريـش لطـاروا

٢ــ إننا نرى أناسا اتخذوا اللّه عرضة لأيمانهم ولا ذمة لهم ولا دين؛ تراه من أوّل الرّاكعين الساجدين بالمساجد الصوامين القوامين ، ولكن إذا ما اعترضه يمين وترتب عليه قسم ليأخذ متاعا من الدنيا لا يتورع أبدا فى أن يحلف عشرات المرات غير مبال بغضب اللّه والعياذ باللّه. جاء فى الصحيحين عن الأشعث بن قيس قال : كان بينى وبين رجل خصومة فى بئر فاختصمنا إلى رسول اللّه ﷺ، فقال رسول اللّه ﷺ: «شاهداك أو يمينه» قلت : إذا يحلف ولا يبالى ، فقال رسول اللّه ﷺ : « من حلف على يمين يستحق بها مالا هو فيها فاجر لقى اللّه وهو عليه غضبان » فأنزل اللّه تصديق ذلك ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ٧٧] .

obeikandl.com

الحديث الرابع والثلاثون

عن أبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان** » رواه مسلم .

تخريج الحديث :

هذا الحديث خرّجه مسلم من رواية قيس بن مسلم عن طارق بن شهبان عن أبى سعيد ، ومن رواية إسماعيل بن رجاء عن أبيه عن أبى سعيد .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

الفقهية :

يشترط فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما يلى :

١ــ أن يكون المنكر مجمعا عليه أو مختلفا فيه ، ومقترفه يرى تحريمه ، أما إذا كان يرى حله ، أو يقلد من يقول بذلك فلا . ففى شرح العلامة الدردير ما نصه : ويشترط فى النهى عن المنكر أيضا : أن يكون مجمعا عليه ، أو مختلفا فيه ، ومرتكبه يرى تحريمه ، لا إن كان يرى حله أو يقلد من يقول بالحل .

٢ ــ أن يكون متفقا عليه : ففى (شرح المواق) ما نصه : وكان سيدى ابن سراج يقول: إذا جرى الناس على شىء له مستند صحيح ؛ وكان للإنسان مختار غيره لا ينبغى أن يحمل الناس على مختاره فيدخل عليهم شغبا فى أنفسهم، وحيرة فى دينهم؛ إذ من شرط التغيير أن يكون متفقا عليه . ا . هـ .

وانظر قول عياض فى (الإكمال): لا ينبغى للآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أن يحمل الناس على مذهبه ، وإنما يغير ما اجتمع على إحداثه وإنكاره . وشرح هذا أيضا محيى الدين النووى فى منهاجه ، أما المختلف فيه فلا إنكار فيه وليس للمفتى ولا

منكرًا : ما أنكر الشارع فعله كالزنا ، أو تركه كالصلاة .

بلسانه : الإنكار باللسان يكون بالوعظ وإسداء النصح أو الزجر أو الاستغاثة ، أو رفع القضايا إلى المحاكم .

بقلبه : أى ببغض المنكر وفاعله ، والتمنى لو كان بوسعه شىء حتى يزيله .

للقاضى أن يعترض على من خالفه إذا لم يخالف نص القرآن أو السنة أو الإجماع ، ونحو هذا فى جامع الذخيرة للقرافى ، ونحوه فى قواعد عز الدّين .

٣ ــ أن يكون المنكر مخالفا للقرآن أو السنة أو الإجماع [١] .

٤ ــ ألا يكون إنكار المنكر يؤدى إلى التحريم .

٥ ــ أن يكون إنكار المنكر والأمر بالمعروف فى حالة الوجوب ؛ لأنه قد يكون مندوبا فحسب ، كما فصّل ذلك العلامة البيجورى ــ رحمه اللّه ــ فى(شرح الجوهرة) فقال: فيندب الأمر بالمندوب ، والنهى عن المكروه ، ويجب الأمر بالواجب والنهى عن الحرام ، فالمكروه لا يشدّد فى النهى عنه كما يشدد فى النهى عن الحرام طبعا .

الاجتماعية :

أ ــ الإسلام عكس النظم الاجتماعية الأخرى التى يسود فيها قانون الغاب ، والسيادة مكرة على الأقوياء سواء كانت القوة مالية ، أو إعلامية ، أو حزبية ، بل يحرص النظام الاجتماعى الإسلامى على أن يكون البقاء فيه للأصلح والأطهر ؛ لأنه مجتمع نظيف طاهر لا مكان فيه للأمراض الاجتماعية الخطيرة ، ولا يعيش بينه مجرم محترف .

ولعل الفضل فى ذلك كله لا يعود إلى الحدود والقصاص قبل فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ لأنها هى التى تكتشف المرض وتقاومه فى مهده قبل استفحاله وانتشاره.

ب ــ من أهم الأسباب فى إفلاس النظم الاجتماعية الأرضية إهمالها لقاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى هى خاصية من خصائص النظام الاجتماعى الإسلامى، والإسلام بهذه القاعدة يشرف الإنسان ويكرمه ويرفعه إلى درجة سامقة ، ألا وهى درجة الاستخلاف فى الأرض فهو المنكر لما أنكره اللّه ، والمتقبل لما يعترف به الإسلام .

إذًا فالمسلم له كلمته وله وزن فى هذا الكون ؛ لأنه يمثل عدالة اللّه ، وهذا غاب عن ملائكة الرحمن حين قال اللّه لهم : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ٣٠] .

جـ ــ إن الإنكار بالقلب لا يقف عند حد الانقباض فى النفس والاستياء ، بل له

---

(١) من القواعد الأصولية عند الإمام الشافعى .

وقعه وسلطانه إن فسّر هذا التفسير القرآنى : ﴿ **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ** ﴾ [النساء : ١٤٠] .

إنه المقاطعة الجماعية لأرباب الفسق والفجور ، وها هو القرآن الكريم يصور لنا الحالة النفسية الحرجة ، والمأزق المتأزم الذى وقع فيه الثلاثة الذين خلّفوا عن غزوة تبوك مع رسول اللّه وهم : كعب ، وهلال ، ومرارة. قال تعالى : ﴿ **وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ** ﴾ [التوبة : ١١٨] ، لقد دعا النبى ﷺ إلى مقاطعتهم وعدم مجالستهم حتى كان الواحد منهم يفشى السلام لأقرب أقربائه فلا يرد عليه ، وهجرتهم نساؤهم وأهلوهم وأهملوهم حتى تاب اللّه عليهم .

د ــ الأمة التى تتغاضى عن المنكرات ، وتعايش أرباب المعاصى وتتعامل معهم بلا تحفظ أمة تحارب اللّه ورسوله ، وهى مشتركة مع فجّارها بسكوتها وإقرارها ، قال تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً** ﴾ [الأنفال : ٢٥] ، وصدق الشاعر فى قوله :

بنو ثقيف ألا فانهوا سفيهكم ... إن السفيه إذا لم ينه مأمور

وهى بذلك تسعى فى خرابها ، وتعمل على تقويض بنائها كما فعلت من قبل بنو إسرائيل . قال ربنا سبحانه : ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ [المائدة : ٧٨ ، ٧٩] .

هـ ــ لقد ضمن الإسلام حرية الفرد إذا لم تكن على حساب حريات الآخرين ، كما راعى حرمة بيته وصانها من أن تكون عرضة للمداهمات والتسور والتجسّس ، قال تعالى: ﴿**وَلا تَجَسَّسُوا** ﴾ [الحجرات : ١٢] .

إذًا فالتجسس كما قلت على عورات الناس والتطلع إلى أسرارهم حرام فى الإسلام، اللهم ما استثناه الماوردى : من ذلك ما إذا أخبره من يثق بقوله : إن رجلا خلا برجل ليقتله ، أو امرأة ليزنى بها ؛ فإنه يجوز له فى مثل هذه الحالة أن يتجسس ويقدم على الكشف والبحث حذرا من فوات ما لا يستدركه .

وللمتهالكين على القوانين الغربية المبهورين بالمجتمعات الأوربية أسوق ما ذكر عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أنه مشى بالليل فرأى نارا فى بيت فأتى إليها فإذا قوم يشربون ، وشيخ بينهم فاقتحم عليهم وقال : يا أعداء اللّه أمكن اللّه منكم . فقال الشيخ : ما نحن بأعظم منك ذنبا يا أمير المؤمنين ؛ إن عصينا اللّه فى واحدة فقد عصيته أنت فى ثلاث . فقال له عمر : وما هن ؟ فقال : تجسست وقد قال اللّه تعالى : ﴿ **وَلَا تَجَسَّسُوا** ﴾ [الحجرات : ١٢] ، وأتيت البيوت من ظهورها وقد أمر اللّه تعالى بإتيانها من أبوابها ، ودخلت بيتا غير بيتك من غير استئذان ولا تسليم وقد أمر اللّه تعالى بذلك؛ فاحتشم عمر وقال : صدقت ، استغفر لى ! فقال الشيخ : غفر اللّه لنا ولك .

وقد كان الحسن البصرى يقول : إياكم والتجسّس ، فواللّه لقد أدركت ناسا لا عيوب لهم فتجسسوا على عيوب الناس ، فأحدث اللّه لهم عيوبا .

فقه الدعوة

١ ــ الدعوة إلى دين اللّه وإلى نبذ الشركاء والطواغيت ليست حرفة يحترفها من يحترفها تكسبًا واسترزاقا ، وليست منصبا يتفاخر به المتفاخرون ، ويتباهون بمقعده الوثير ومرتبه الوفير ، بل هى مسؤولية كبرى وأمانة عظمى .

الداعية المخلص أعرف الناس بثقلها وجسيم تباعتها ؛ لذا يسعى هذا الصنف دوما أن يكونوا شموعا تحترق لتضىء على البشرية ، ويفجرون من أجسادهم ينابيع الدماء الزكية لتسقى شجرة العقيدة الإسلامية ، وللّه درّ ذلك الداعية المخلص حين قال : وددت أن الخلق كلهم أطاعوا اللّه وأنّ لحمى قرض بالمقاريض .

كما كان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز يقول لأبيه : وددت أنى غلت بى وبك القدور فى اللّه تعالى .

ما كانت هذه التضحيات لتكون لولا أن سيد الدعاة ورسول الهداة عليه السلام جسّد هذا الفداء فى أروع صوره حين كانت الدماء تنهمر من وجهه الشريف يوم أحد ، ومع كل هذا ظل يدعو لأعدائه : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » صلى عليك اللّه يا علم الهدى .

٢ ــ إن سلاح الداعية ليس هو السيف، بل هو الحكمة. قال تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾ [النحل:١٢٥] وكثير ما يكون للحكمة والأسلوب المهذب أبلغ الأثر فى تغيير المنكر وصرف فاعله عن وجهته بالرفق، وهذا غالبا ما يجدى مع ذوى الهيبة والوقار وأرباب الحكم والسلطان . روى أن رجلا من الصحابة أكثر شرب الخمر

بالشام فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه فكتب له : ﴿ حمٓ . تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر : ١ ـ ٣] ، فترك الرجل الخمر وتاب ، وحكى التاج السبكى عن أبيه أنه كان يجتمع ببعض الأمراء ، وكان الأمير يلازم الحرير فقال : يا أمير بكم الذراع من هذا ؟ فقال : بدينار ، فقال : فى الصوف ما يساوى كل ذراع منه دنانير ومماليك وخدمات يشاركونك فى لبس الحرير ولا يليق بشهامتك أو يساووك فاعدل إلى الصوف؛ فإنه أعلى وأغلى مع ما فيه من السلامة من العقاب الأخروى فاستحسن كلامه ، ولو قال له ابتداء : هذا حرام لم يفد .

٣ ــ انطلاقا من حديث أبى سعيد عن النبى ﷺ قال : « أفضل الجهاد كلمةُ حق عند سلطان أو أمير جائر » (١) .

وقف العلماء والدّعاة المخلصون فى وجْه الجور والظلم وكانوا بجرأتهم كالسدّ فى وجه السيل العرم . وذى بعض الأمثلة :

ــ أخرج مسلم فى حديث طارق قال : أوّل من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان ، فقام إليه رجل فقال : الصلاة قبل الخطبة ، فقال : قد ترك ما هنالك ، فقال أبو سعيد : أمّا هذا فقد قضى ما عليه ، ثم روى هذا الحديث ــ الذى هو موضوع البحث .

ــ والدارس للتاريخ الإسلامى يجد الكثير من هذه المواقف الفياضة بالشجاعة الإيمانية كمواقف سعيد بن المسيب مع الحجاج بن يوسف الثقفى ، والإمام مالك مع الخليفة المنصور ، والعز بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء ، وابن باديس ومواقفه الصريحة من الاستعمار الفرنسى . . . وغيرهم كثير .

تطبيق

١ ــ يعانى الفرد المسلم اليوم فى كثير من المجتمعات الإسلامية انفصاما خطيرا فى شخصيته نظرا للتباين الكبير بين مبادئه ومعتقداته وبين ما يجرى حوله ، بين ما يقول وما يفعل ، بين ما يتصوره عن الإسلام وما يلمسه فى المسلمين ، بين ما يسمعه بالمسجد أو المدرسة وما يتعامل به فى المتجر والمصنع والبيت والشارع ، يعيش فى دوامة هذا التناقص بينه وبين المجتمع الذى يعيش فيه ، بل وربما بين ما بداخله وما بخارجه ،

(١) رواه أبو داود ، واللفظ له ، والترمذى ، وابن ماجه كلهم عن عطية العوفى عنه ، وقال الترمذى : «حديث حسن غريب » .

ومنشأ هذا فى اعتقادى الرضا بالمنكر وتجاهل المعروف وعدم الأمر به ، ومن ثم عدم ائتمار الآمر بالمعروف وانتهاء الناهى : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة : ٤٤] .

٢ ــ الكثير من مجلات العالم الإسلامى وصحفه شيطان أخرس ، إذ تخوض هذه الوسائل الإعلامية فى كل مجال إلا مجال الدين الإسلامى ، اللهم إلا بعض الفقرات فى بعض أعمدة تكرس الشريعة الإسلامية فى الأخلاق فحسب ، وربّما تطرقت إلى الخلافات الفقهية والعراكات الكلامية ، ولكنها عما يجرى فى عالمنا الإسلامى عمياء ، وعن واقع المسلمين وما يحاك للدعوة الإسلامية من الغرب والشرق خرساء بكماء .

إننا لم نسمع عن أزمة المسلمين فى بلغاريا ، ومحنهم فى الفلبين ، وفى إريتريا ، وأندونسيا ، إلا من بعض أجهزة الإعلام الغربية ، نكاية بالكتلة الشرقية أو العكس ، ولم تنبس كثير من وسائل إعلامنا العربية أو فى ديار الإسلام ببنت شفة ولو بقول : اللهم إن هذا منكر .

obeikandl.com

الحديث الخامس والثلاثون

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « **لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا ، المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يكذبه ، ولا يحقره . التقوى هاهنا** ــ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ــ **بحسب امرئ من الشر أنْ يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه** » رواه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب .

دروس وعبر من كلام سيد البشر

التصوف السنى :

« بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » .

١ ــ إن المخلص ــ مهما بلغ فى تعبده ــ لا يزهو بطاعته ولا تغريه عباداته ، وإن كثرت ؛ لأنه لا يأمن مكر الله ، ولا يضمن حسن خاتمته ، ولا يبتغى بما يفعل ثناء البشر وكسب ألسنتهم ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ﴾ [الإنسان:٩]، ولا يدرى أيضا لمن الأفضلية؛لقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات:١١] ؛ ولأن المعصية التى تورث ذلا وافتقارا خير من الطاعة التى تورث عزا

لا تحاسدوا : الحسد : هو تمنى زوال نعم الغير .

لا تناجشوا : النّجش فى اللغة:هو إثارة الشىء بالمكر والمخادعة ومنه النجش فى البيع وهو: أن يزيد الرجل فى سلعة ما بلا هدف الشراء، وإنما بهدف نفع البائع بالثمن المزاد أو بنية إضرار المشترى بزيادة الثمن عليه.

لا تباغضوا : أى لا يبغض بعضكم بعضا .

لا تدابروا : أى لا يعرض بعضكم عن بعض فيولى أحدكم ظهره لأخيه .

لا يخذله : لا يدخر جهدا في نصرته ورد الظلم عنه .

لا يكذبه : أى لا يخبره بما يخالف الواقع .

بحسب : أى يكفيه من الشر .

واستكبارا، أما من نسى شيئا مما سبق ذكره وخالطه شيء من حظ نفسه ؛ احتقر من هم أقّل منه تنقّلا واستهان بهم ، وربما أفحش فى مخاطبتهم ، وانهال عليهم بالتّهم اللذعة كالفسق، والفجور ، والتفريط ، وربما أيضا بالزندقة ، والضلال :

فلا تحقرنّ شخصا من النّاس علـه ولـىّ إلـه العـالمين ولا تـدرى

فذو القدر عند الله خاف عن الورى كما خفيت عن علمهم ليلة القدر

فى حين أن القرآن يفضّل الكلمة الطيبة عن الطاعة التى يعقبها التجنّى ﴿ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى** ﴾ [البقرة : ٢٦٣] .

وهذا الحديث النبوىّ الشريف يحمل مسؤولية ضياع الجماعات وضلال الأمة ، أولئك الذين يشرفون على الأمة من شرفات عاجية ويتحسرون على هلاكها دون أن يأمروا بمعروف ، أو ينهوا عن منكر ، فعن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبىّ ﷺ قال: « من قال : هلك الناس فهو أهلكهم »(١) قال مالك: إذا قال ذلك تحزّنا لما يرى فى النّاس ــ يعنى فى دينهم ــ فلا أرى بأسا ، وإذا قال ذلك تعجبّا بنفسه وتصاغرا للنّاس فهو المكروه الذى نهى عنه . وقال الإمام الغزالى : لأنه مزدر بخلق الله مغتر بالله ، آمن مكره غير خائف من سطوته، وكيف لا يخاف ويكفيه شرا احتقاره لغيره؟!

٢ ــ « . . . لا تحاسدوا . . . » .

قد تدور بخلد المرء بعض المعاصى ، وتحدثه نفسه باقتراف إثم ما ، أو ربّما يزين له قرينه ــ إبليس اللعين ــ معصية من المعاصى، ويكون الدافع هنا هو الشيطان الرجيم. ولكل عدوّ ــ الشيطان ، والنفس ، والهوى ــ سلاح يدفع به وطريقة يتخلّص المؤمن من شرهما بما يلى :

أما إبليس : فقد كفانا المولى ــ عزّ وجل ــ شرّه إذا ما ابتعدنا عن نهجه ولم نترسّم خطواته واستعذنا بالله ولذنا بحصنه تعالى .

وأمّا النفس البشرية فسلاح مقاومتها هيّن على من أعانه الله تعالى على وساوسها، ولكن قبل تعرّضنا لذلك جدير بنا أن نبين الفارق بين وسْوسة الشيطان وتطويع النّفس لارتكاب المعاصى ، حيث إن إبليس اللعين لا يزال ينتقل بصاحبه من معصية إلى أخرى ؛ فيزين له القتل مثلا ، فإن لم يفلح فى الإيقاع بصاحبه نقله إلى الزنا مثلا . . ويظل يسوّل له حتّى يوقعه فى واحدة منها ، هنالك يكون قد حقّق هدفه ونفّذ غاية الإغواء : ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِين** ﴾ [ص : ٨٢] ﴿ **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي** ﴾ [الأعراف:١٦] ، وأمّا النّفس البشرية فإنها تأمر صاحبها باقتراف إثم وتظلّ وتلحّ عليه

(١) صحيح مسلم .

ولا يهدأ لها بال إلا إذا أجاب مطلبها ، مهما ارتكب من المعاصى المختلفة ، والمؤمن متمكّن بعون الله من مقاومتها ، فإن هى تطلعت إلى ما فى أيدى الناس وراحت تمنّى صاحبها بزوال نعم الغير وتحثّه إلى السعى فى انتقالها إليها أو إتلافها وحرمان المتنعّمين بها . أوقفها صاحبها ، بل وأشهر سلاح الإيمان لمقاومتها وصدّ هجومها وهو ذا الجهاد فى النّفس حيث يتبع فيه المراحل التالية :

أ ــ تذكير النفس بمضار الحسد الدنيويّة وعواقبه الأخروية الوخيمة باستعراض الأحاديث النبوية الشريفة التى تصوّر هو عقاب الحسد كحديث الزبير بن العوام رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال : « دب إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء ، والبغضاء هى الحالقة : حالقة الدّين لا حالقة الشعر . . . . . » (١) ، وحديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبىّ ﷺ قال : « إيّاكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » أو قال : « العشب » (٢) .

ب ــ ألا يعيد ما حدثته نفسه به اختيارا .

جـ ــ وألا يعمل بمقتضى حسده فيسعى إلى تحقيقه بالبغى على المحسود بقول أو فعل .

د ــ أن يسعى إلى رزالة ما علق بنفيه من الحسد بالإحسان إلى المحسود والدعاء له ، وبث محامده ، ومن ثم يعمل على إبدال حسده إلى حب صادق ، وذى هى أعلى درجات المجاهدة التى هى قمة الإيمان السّامقة .

٣ ــ « . . ولا تباغضُوا . . . . » .

الحبّ فى الله والبغض فيه ميزة الأتقياء الأنقياء الذين خلصت نفوسهم من الاعتبارات الشخصية ، وسمت أرواحهم من الموازين الأرضية . وهو ــ أى الحبّ فى الله والبغض فى الله ــ غير داخل فى هذا النهى النبوىّ ، ولكن ينبغى التذكير أن الحبّ فى الله منبثق عن امتثال أمر الله تعالى واجتناب نهيه ، لا عن حقيقة إيمان المرء ودرجة إخلاصه مع ربه فمعرفة هذه من اختصاصات المولى ــ عز وجل . ومن ثم فبغضك لرجل ظهر منه شر ــ وهو فيه معذور ــ هو عينه البغض فى الله المأجور عنه ، ولهذا فى الأثر دليل حيث قال عمر رضى الله عنه : إنّا كنّا نعرفكم إذ رسول الله ﷺ بين أظهرنا وإذ ينزل الوحى ، وإنما نعرفكم بما نخبركم ، ألا من أظهر منكم لنا خيرا ظننا به خيرا وأحيناه عليه ، ومن أظهر منكم شرًا ظننا به شرًا وأبغضناه عليه ، سرائركم بينكم وبين ربكم تعالى . وقال الربيع بن خيثم : لو رأيت رجلا يظهر خيرا ويسرّ شرًا

(١) رواه الترمذى .

(٢) رواه أبو داود .

أحببته عليه آجرك الله على حبك الخير ، ولو رأيت رجلا يظهر شرّا ويسر خيرا أبغضته عليه آجرك الله على بغضك الشرّ .

العقائدية :

الحاسد الذى يتمنّى زوال النعم ، ويسعى إلى نقلها لنفسه معترض على قضاء الله وقدره ، غير راض بما قسم الله له ولله درّ القائل :

ألا قل لمن ظل لى حاسدا أتدرى على من أسأت الأدب

أسأت على الله فى حكمه إذا أنت لم ترض لى ما وهب

الفقهية :

١ ــ « ولا تناجشوا . . . ولا يبع بعضكم على بيع بعض » .

ورد النهى عن ذلك فى روايات كثيرة وبصيغ عديدة ؛ ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال : « لا يبع المؤمن على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه » . وفى رواية لمسلم : « لا يسم المسلم على سوم أخيه ، ولا يخطب على خطبته » . وخرج البخارى ومسلم من حديث ابن عمر عن النبىّ ﷺ قال : « لا يبع الرّجل على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه إلا أنْ يأذن له»، والنهى هنا للتحريم غير أن فقهاء الإسلام اختلفوا فى صحّة البيع أو الخطبة ؟

(فقال أبو حنيفة والشافعى ــ رحمهما الله ــ وأكثر أصحابنا (١) : يصحّ ، وقال مالك فى النكاح : إنه إن لم يدخل بها فرق بينهما ، وإن دخل بها لا يفرق ، وقال أبو بكر من أصحابنا فى البيع والنكاح : إنه باطل على كل حال ، وحكاه عن أحمد ، ومعنى البيع على بيع أخيه أن يكون قد باع منه شيئا فيبذل للمشترى سلعته ليشتريها ، ويفسخ بيع الأول ، وهل يختصّ ذلك بما إذا كان البذل فى مدّة الخيار بحيث يمكن المشترى من الفسخ فيه أم هو عام فى مدّة الخيار وبعدها ؟

فيه اختلاف بين العلماء ، وقد حكاه الإمام أحمد فى رواية حرب ، ومال إلى القول بأنه عام فى الحالين ، وهو قول طائفة من أصحابنا .

ومنهم من خصه بما إذا كان فى مدة الخيار ، وهو ظاهر كلام أحمد فى رواية ابن مشيقص ومنصوص الشافعى ، والأوّل الأظهر ؛ لأن المشترى وإن لم يتمكن من الفسخ بنفسه بعد انقضاء مدة الخيار ؛ فإنه إذا رغب فى ردّ السلعة الأولى على بائعها فإنه

(١) رأى الحنابلة .

يتسبب فى ردّها عليه بأنواع من الطرق المستفيضة لضرره ، ولو بإلحاح عليه فى المسألة وما أدّى إلى ضرر المسلم كان محرمًا ، واللّه أعلم)(١) .

٢ــ « ولا تباغضوا . . ولا تدابروا . . » .

التدابر كما عرفه علماء الإسلام : التقاطع ، وهو مأخوذ من الإعراض ؛ لأن كل واحد يولى صاحبه دبره .

وهو فى الأمور الدنيوية حرام ، فقد ورد فى الصحيحين عن أبى أيوب عن النبى ﷺ قال : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان ؛ فيصد هذا ويصدّ هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » .

أما إذا كان الهجر فى الأمور الدينية فيجوز الهجر فيها أكثر من ثلاث :

أ ــ ومن قبيلها : هجر الزوج زوجته تأديبا ؛ لقوله تعالى : ﴿ **وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلا** ﴾ [النساء : ٣٤] كما هجر النبى ﷺ نساءه شهرا .

ب ــ ومنه هجر النبى ﷺ لكعب بن مالك وصاحبيه خمسين يوما لما تخلفوا عن غزوة تبوك بغير عذر ، وأمر أصحابه بهجرانهم .

جـ ــ وكذا هجر أهل البدع والضلالات .

وهناك لطيفة أخرى تفطن إليها ابن قيم الجوزية حيث قال معقبا على نهى النبى ﷺ عن مكالمة المخلفين عن غزوة تبوك :

(. . . وفيه دليل أيضا أنّ رد السلام على من يستحق الهجر ليس بواجب) (٢) . مستمدا ذلك من حكاية كعب رضى اللّه عنه لحاله حيث قال : فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين . . وآتى رسول اللّه ﷺ فأسلم عليه ، وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول : هل حرك شفيته بردّ السلام علىّ أم لا ؟ .

واختلف فى انقطاع الهجر بالسلام ، روى عن مالك أن السلام لا يقطع الهجران بدون العودة إلى المودة ، ولا بأس أن نورد قصة لعائشة أم المؤمنين مع ابن اختها عبد الله بن الزبير ــ رضى اللّه عنهما ــ وقد استشكلها العلماء ؛ لأنها جمعت بين النذر والهجر، روى البخارى عن عائشة ؛ أن عبد الله بن الزبير قال فى بيع أو عطاء أعطته عائشة : واللّه لتنتهين عائشة ، أو لأحجرن عليها ، فقالت : أهو قال هذا ؟ قالوا :

(١) جامع العلوم والحكم ص ٣١٣ .

(٢) زاد المعاد فى هدى خير العباد ٣ / ٢٠ .

نعم ، قالت : هو للّه على نذر ألا أكلم ابن الزبير أبدا . فاستشفع ابن الزبير لها حين طالت الهجرة ، فقالت : لا ، واللّه لا أشفع فيه أبدا . ولا أحنث فى نذرى ،فلما طال ذلك على ابن الزبير كلم المِسْور بن مخْرَمَة ، وعبد الرحمن بن الأسْود بن عبد يغوث ، وهما من بنى زُهرة ، وقال لهما : أنشدكما باللّه لما أدخلتمانى على عائشة فإنها لا يحل لها أن تنذر قطيعتى ــ هى خالته ومرّ بيته ــ فأقبل به المسور وعبد الرحمن وهما مشتملين بأرديتهما حتى استأذنا على عائشة ، فقالا : السلام عليك ورحمة اللّه وبركاته، أندخل ؟ قالت عائشة : ادخلوا ، قالوا : كلنا ؟ قالت : نعم ادخلوا كلكم، ولا تعلم أن معهما ابن الزبير ، فلما دخلوا دخل ابن الزبير الحجاب فاعتنق عائشة ، وطفق يناشدها ويبكى وطفق المسور وعبد الرحمن يناشدانها : إلا ما كلمته ، وقبلت منه ، ويقولان : إن النبى ﷺ نهى عما قد علمت من الهجر ، وإنه لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، فلما أكثروا على عائشة من التذكرة بفضل صلة الرحم والعفو وكظم الغيظ ــ والتحريج ــ والتضييق ــ طفقت تذكرهما وتبكى ، وتقول : إنى نذرت ، والنذر شديد ، فلم يزالا بها حتى كلمت ابن الزبير ، وأعتقت فى نذرها ذلك أربعين رقبة ، وكانت تذكر نذرها بعد ذلك فتبكى حتى تبل دموعها خمارها .

٣ ــ « . . . كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » .

إن كتب الفقه الإسلامى قد أفاضت فى الحديث عن الجنايات وأحكامها ، والقصاص وأنواعه بما يشفى غليل الباحث فليعد إليها من شاء .

النفسية :

« . . . لا تحاسدوا . . . ولا تباغضوا . . . » .

ــ ليس صدفة أن يبدأ النبى ﷺ فى منهياته بالحسد ؛لأنه الداء النفسى الخطير والباعث للمرء على ارتكاب الإثم الكبير حيث يبدأ حديثا نفسيا ، ثم تتأجج نيرانه فى ميدان الواقع الملموس لتأتى على الأخضر واليابس ، ولإتلاف الزرع والضرع ، وهذه كفيلة بغرس الشحناء والتقاطع والتدابر .

والحاسد امرؤ حاله يرثى لها ؛ لأنه يرقب الناس صباحًا ومساء فلا يهدأ له بال ولا يقر به قرار بل ولا يغمض له جفن ولا يذق طعم الراحة والأمان ، وللّه درّ خليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز حيث قال: ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد غمّ دائم ونفس متتابع، ويرجع أمره هذا إلى تطلعه إلى من هم فوقه مالا أو سلطانا وجاها،

كان الأولى به أن يتمثل لأمر نبيه ﷺ ، فعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن تزدروا نعم الله عليكم » . وصدق الشاعر الناصح :

من رام عيشا رغيدا يستفيد به فى دينه ثم فى دنياه إقبالا

فلينظرن إلى من فوقه أدبا ولينظرن إلى من تحته مالا

وعليه أن يروض نفسه على النظر إلى النعم التى ينعم بها الناس باعتبارها دليلا على المنعم ــ سبحانه وتعالى ــ ،وليصوب نظره إلى من هم دونه ليحمد اللّه على ما أولاه.

ــ والحاسد بطبيعته لا يصافيك وإن أفنيت عمرك فى استرضائه :

كل العداوة يرتجى برؤها إلا عداوة من عاداك من حسد

ومن ثم فلا تسعى إلى لومه ؛ لأنك بذلك تشفى غليله ، بل إعراضك عنه يكفيك شره ويمنع عنك ضرره :

دع الحسود وما يلقاه من كمده يكفيك منه لهيب النار فى كبده

إن لمت ذا حسد فَرّجت كربته وإن سكت فقد عذبته بيده

ويقول شاعر آخر :

اصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتله

كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

وأكبر حصن يلوذ به المرء هو قوله تعالى بعد البسملة : ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . مِن شَرِّ مَا خَلَقَ . وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ . وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ** ﴾ [سورة الفلق] .

ــ من طهر قلبه من الغل والحسد ضمن الحياة الكريمة والاستقرار والطمأنينة فى الدنيا والسعادة فى الأخرى كذلك، عن أنس بن مالك رضى اللّه عنه قال: كنا جلوسا مع رسول اللّه ﷺ فقال: «يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة» فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعْليه بيده الشمال ، فلما كان الغدُ قال النبى ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان اليوم الثالث قال النبى ﷺ مثل مقالته أيضا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأول، فلما قام النبى ﷺ تبعه عبد اللّه بن عمرو، فقال: إنى لاحيتُ أبى، فأقسمت أنى لا أدخل عليه ثلاثا؛

فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى فعلت ، قال : نعم ، قال أنس : فكان عبد اللّه يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالى فلم يره يقوم من الليل شيئا غير أنه إذا تعار ـ تقلب على فراشه ـ ذكر اللّه ـ عز وجل ـ ، وكبر حتى صلاة الفجر ، قال عبد اللّه: غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيرا ، فلما مضت الثلاث ليال ، وكدت أن أحتقر عمله قلت: يا عبد اللّه لم يكن بينى وبين أبى غَضَبٌ ولا هجرة ، ولكن سمعت رسول اللّه ﷺ يقول لنا ثلاث مرار : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » ، فطلعت أنت الثلاث مرار ، فـأردت أن آوى إليـك ، فأنظـر ما عملك، فأقتدى بك ، فلم أرك عملت كبير عمل ، فما الذى بلغ بك ما قال رسول اللّه ﷺ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت ، فلما وليت دعانى فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشًا ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه اللّه إياه ، فقال عبد اللّه : هذه التى بلغت بك (١).

« ولا يكذبه . . » .

إن القرآن كفيل بتحليل شخصية الكاذب وكشفه عن حقيقته قبل أن يدلى علماء النفس بدلائهم فى هذا المجال (٢).

« ولا يحقره . . بحسب امرئ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم » .

احتقار الناس وازدراؤهم خسيسة متولدة عن التكبّر على خلق اللّه ، وعقدة المتكبّر أنه يرى نفسه بعين الكمال وإلى غيره بعين النقص ، يرى نفسه أنه الأفضل والأحسن والأجمل . . . والمبرأ من كل نقيصة . . وغيره جمعوا الرذائل . أو أنه معقد نفسيًا من نقص مادى أو معنوى أو عيب خلقى فى شخصه فيسعى جاهدًا إلى تغطيته بالتعالى على الغير والتكبر عليهم غير أنه ـ فى حقيقة الأمر ـ لا يضر إلا نفسه وعقيدته، فهو محارب للّه ـ عز وجل ـ منازعٌ له فى خاصية من خصوصياته . روى مسلم عن النبى ﷺ : « قال تعالى : العز إزارى ، والكبرياء ردائى فمن نازعنى عذبته » .

ثم إن المتكبر عدوّ لنفسه ؛ لأنه يستنكف سماع النصح فيعمى التكبّر بصره ويصم سمعه ويضحى كالذى ورد فيه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ﴾ [البقرة : ٢٠٦]، وقال تعالى أيضا فى شأن هؤلاء: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾[الفرقان : ٦٠] ، ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي

(١) رواه أحمد بإسناده على شرط البخارى ومسلم والنسائى .

(٢) تعرضت لذلك فى كتاب : ماذا خسر العالم بالانحطاط الأخلاقى ص ٤٠ .

﴿ الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [القصص : ٣٩] .

وفى مسلم : قالت قريش لرسول الله ﷺ : كيف نَجْلس إليك وعندك هؤلاء؟ أشاروا إلى فقراء المسلمين فازدروهم وتكبّروا عن مجالستهم ،فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٢] .

والمتكبر مهما كانت دوافعه إنسانٌ مادى لا يدرك سرّ التفاضل الحقيقى الذى أشار إليه النبى ﷺ فى قوله : « التقوى ها هنا »(١) طبقا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وإذا كان أصل التفاضل بالتقوى ، فإن أصل التقوى فى القلوب، ومن ثم فلا يطلع أحد على حقيقتها إلا الله تعالى ، وإذا كان ذلك كذلك ، فكيف يتفاضل أقوام ويتفاخرون على آخرين دون أن يشقوا على صدورهم ؟ !

كان الأجدر بهؤلاء وأمثالهم أن يعتبروا بما جاء فى صحيح البخارى عن سهل بن سعد قال : مرّ رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس : « ما رأيك فى هذا؟ » فقال : رجل من أشراف الناس : هذا والله حرى إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، وإن قال أن يسمع لقوله ، قال : فسكت النبى ﷺ ثم مرّ رجل آخر، فقال رسول الله ﷺ: ما رأيك فى هذا ؟ » قال : يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حرىّ إن خطب ألا ينكح ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال لا يسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ : «هذا خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا » .

« لا تحاسدوا ولا تناجشوا . . ولا يبع بعضكم على بيع بعض . . » .

حبّ المال فطرة أودعها الله فى الإنسان ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر : ٢٠] ولكنه هذبها بالإيمان ، فبين الإسلام أن المادة ليست كل شىء، وإنما هى وسيلة فحسب، ولخطورتها تولى القرآن الكريم نفسه تبيان مصادر المال الحلال ومصارفه، وأشرف على توزيعه على الورثة بالتدقيق .كل ذلك حتى يربأ بالمجتمع الإسلامى أن تربطه خيوط المادة الواهية ، وتنهش مخالبها المبادئ السّامية ، والقيم الروحية الفاضلة؛ وساعتها لنْ تُفرق بين المجتمعات البشرية والتجمعات الوحشية الغابية .

« ولا يكذبه » .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب .

فى الحقيقة إن جرم الكذب شنيع جدًا لهذا وصفه القرآن الكريم بـ : ﴿ وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١٥] وشناعته فى قبح آثاره ، وجسامة مصائبه ، وفداحة أخطاره.

« . . لا يظلمه ولا يخذله . . » .

إن الفرد فى المجتمع الإسلامى لا يكف يده عن البطش ، ولسانه عن القذف ، وجوارحه عن الظلم فحسب ، بل يقف منافحا عن أعراض إخوانه ، ومدافعا عن دمائهم بكل ما أوتى من قوة وعزيمة ، وهكذا تتكافل لبنَات المجتمع الإسلامى مجسدة التلاحم فيما بينها ، مستمدة تماسكها من المبادئ الإسلامية المنصوص عليها فى العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ، وإذا أردت التمعن فانظر إلى هذا التصوير الدقيق ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤] . « مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد » .

وبهذه المواقف يبرهن المؤمن على عدم أنانيته ، ومن ثم يستعصى على أعدائه القضاء عليه مهما أوتوا من منكر ؛ لأنه يضع الحكمة القائلة : أكلت يوم أكل الثور الأبيض دوما نصب عينيه .

أخرج أبو داود من حديث أبى طلحة الأنصارى و جابر بن عبد اللّه عن النبى ﷺ قال : « ما من امرئ مسلم يخذل امرأ مسلما فى موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله اللّه فى موطن يحب فيه نصرته ، وما من امرئ ينصر مسلما فى موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك من حرمته إلا نصره اللّه فى موضع يحب فيه نصرته »(١) .

« . . لا تحاسدوا ولا تناجشوا . . . المسلم أخو المسلم . . . . . » .

إن الأخوة فى الإسلام ليست من تخيلات المدينة الفاضلة ولا من قبيل الفرضيات أو الشعارات الجوفاء ، بل هى حقيقة لمستها أيدى الأعداء فضلا عن الأصدقاء ، تجسدت على أرض الواقع وحققت المعجزات حتى إن الرائى لذلك المجتمع لا يرى أفرادًا أشتاتا، بل يرى أنسجة حيّة وعروقا نابضة وشرايين متدفقة وأعضاء متكاملة لجسم واحد ، مشاعره واحدة ، ومبادئه واحدة ،وأحاسيسه واحدة ،وأهدافه أيضا واحدة .

لقد أرسى الإسلام أسس ذلك المجتمع ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي

(١) أبو داود : كتاب الأدب ٤٨٨٤ .

﴿ الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٢ ، ٦٣] .

ومن خصوصيات المجتمع الإسلامى أنه خال من المقوضات ، فلا تعصف به العواصف ولا تزلزله الأحداث ؛ لأن الإسلام حرّم كل ما يوجب القطيعة من خمر ، وميْسر، وقمار ، وحسد ، وتناجش ، وخطبة على خطبة ، وصدق ربنا إذ يقول : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩١] .

وحثّ ــ أى الإسلام ــ على موجبات الألفة وكل ما يذهب الضغائن :

أولها : إفشاء السلام ، عن النبى ﷺ أنه قال :« والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنّة حتّى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم » (١) .

ثانيهـا : المصافحة ، قال الحسن رضى اللّه عنه : المصافحة تزيد فى المودة .

ثالثهـا : التهادى ، فعن أبى هريرة رضى اللّه عنه ، عن النبى ﷺ قال : «تهادوا فإن الهدية تذهب وحر الصدر » .

رابعها : أمر المسلمين بالسعى إلى إصلاح ذات البيْن وخول للطائفة المصلحة كل الصلاحيات لإرجاع الفئة الباغية إلى رشدها والإقلاع عن غيها . قال تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات : ٩] ،﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [النساء : ١١٤] .

خامسها : وحرّم النميمة التى هى أكبر هادم للعلاقات الاجتماعية . عن أسماء بنت يزيد عن النبى ﷺ قال : « ألا أنبئكم بشراركم ؟» قالوا : بلى يا رسول اللّه ، قال : «المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبّة الباغون البراء العيب » (٢)

« بحسب امرئ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم » .

مهما كانت دوافع الاحتقار الذى أفاض فيه حجة الإسلام الإمام الغزالى ــ رحمه اللّه ــ والتى تعرضنا لبعض منها فى الحديث عن الجانب النفسى ، فإن الاحتقار والتعالى على الناس يكرّس ظاهرة خطيرة فى المجتمعات ، وهى ظاهرة الطبقية المجحفة حيث ينقسم المجتمع إلى ثلة الأخيار المبَجّلين المترفين ؛لأنهم الأمراء الحكام أو الذين

(١) رواه مسلم .

(٢) أخرجه الإمام أحمد وغيره .

تزكيهم الدوائر الحزبية ــ فى بعض المجتمعات ــ وهؤلاء حقهم العيش الكريم والرخاء العميم ، والأجور المرتفعة ، والقصور العالية ، والمراكب الفخمة ، والكلمة الأولى لهم ، والمجالس الأولى من حقهم ؛ وكأنهم ولدوا وفى أفواههم ملاعق من ذهب .

وغالبية ساحقة مسحوقة تقتات على الفتات . . وليس لهم إلا المكاء والتصدية ، والويل لهم إن حدثتهم أنفسهم بأمر بمعروف أو نهى عن منكر ، أو حتى يثنوا من وطأة التمييز التى منها يعانون ؛ لأنهم يتدخلون فى أمور لا يفهمون فيها . . وليس لهم فيها نقير أو قطمير . . ولأنهم ليْسوا من أعضاء الكتلة السّائدة بل هم من الغالبية المسودة . . وهلم جرّا .

ووالله إن فتنة الطبقية هذه التى جعلت من أمراء العالم الإسلامى يُولدون أمراء ويموتون أمراء . .ويبعثون . . ؟ ! لهى ثمرة خبيثة بذرها أعداؤنا فى جسم هذه الأمة حتى أضحى الشريف ابن الشريف ــ كما يقال ــ يفعل ما يشاء فى أعراض مريديه وأتباعه وأموالهم وأنفسهم ما لا يفعله العدّو بعدوّه . . . ألا فسحقا وتبا لهؤلاء وأولئك المخلفين عن جلاء أسيادهم إلى وراء البحار .

الأخلاقية :

« كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه » .

إن المسلم الحقيقى هو الذى يسعى جاهدا إلى كفّ جوارحه وكبح جماحها حتى لا تنهش أعراض الناس أو تدخل الأذى عليهم بأى وجه من الوجوه ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]،ومن أشد الأذى الغيبة، ورد فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه سئل عن الغيبة فقال: «ذكرك أخاك بما يكره» قال: أرأيت إن كان فيه ما أقول؟ فقال: « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته».

ومن الأذى أيضا ترويع المسلمين ولو على سبيل المزاح عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال :حدثنا أصحاب محمد ﷺ أنهم كانوا يسيرون مع النبى ﷺ ، فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى حبل معه فأخذه ففزع ، فقال رسول الله ﷺ :« لا يحل لمسلم أن يروّع مسلما » .

ومن كلام يحيى بن معاذ الرازى : ليكن حظ المؤمن منك ثلاثة : إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تفرحه فلا تغمّه ، وإن لم تمدحه فلا تذمه.

الفكرية :

ليس من البغض فى اللّه فى شىء أن نبغض من يخالفنا الرأى أو يقلد مذهبا لا نتبعه ، أو ينضوى تحت جماعة ما من الجماعات الإسلامية التى انتهجت منهجا للإصلاح يختص بها ، بل علينا أن نضع فى أذهاننا دوما القولة الحكيمة : كلكم رادّ ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر عليه الصلاة والسلام .

وليتأكد كل حركى أيا كانت جماعته أن العصمة للمصطفين الأخيار ــ صلوات اللّه عليهم ــ مطمئنا أن قدوته أو إمامه أو شيخه لا يقمط حقه فى الاجتهاد فله الأجر حتى وإن جانب الصواب ما خلصت نيّته وصحت وسيلته .

ثم أن الانتساب لحركة ما ، أو مذهب ما ؛ لا يعنى إطلاقا أن هذه الجماعة هى الجماعة الإسلامية . . وما عداها عار من ذلك وبالتالى يجب إعلان الحرب عليه ومدافعته . . وها هم الأئمة الأعلام أنفسهم يربؤون بالأمة أن تعتقد ذلك المعتقد الشاذ.

(ولما كثر اختلاف الناس فى مسائل الدين وكثر تفرقهم كثر بسبب ذلك تباغضهم وتلاعنهم ، وكل منهم يظهر أنه يبغض للّه .

وقد يكون فى نفس الأمر معذورًا ، بل يكون متبعا لهواه مقصّرا فى البحث عن معرفة ما يبغض عليه ، فإن كثيرا من البغض كذلك إنما يقع لمخالفة متبوع يظن أنه لا يقول إلا الحق ، وهذا الظن خطأ قطعا ، وإن أريد أنه لا يقول إلا الحق فيما خولف فيه، فهذا الظن قد يخطئ ويصيب ، وقد يكون الحامل على الميل إليه مجرّد الهوى والألفة أو العادة وكل هذا يقدح فى أن يكون هذا البغض للّه ، فالواجب على المؤمن أن ينصح لنفسه ويتحرز فى هذا غاية التحرّز ، وما أشكل منه فلا يدخل نفسه فيه خشية أن يقع فيما نهى عنه من البغض المحرّم .

وهاهنا أمر خفى ينبغى التفطن له ، وهو أن كثيرًا من أئمة الدين قد يقول قولا مرجوحا ويكون مجتهدا فيه مأجورا على اجتهاده فيه ، موضوعا عنه خطؤه فيه ، ولا يكون المنتصر لمقالته تلك بمنزلته فى هذه الدرجة ؛ لأنه قد لا ينتصر لهذا القول إلا لكون متبوعه قد قاله بحيث لو أنه قد قاله غيره من أئمة الدّين لما قبله ، ولا انتصر له، ولا والى من يوافقه ، ولا عادى من خالفه ، ولا هو مع هذا يظن أنه إنما انتصر للحق بمنزلة متبوعه وليس كذلك فإن متبوعه إنما كان قصده الانتصار للحق وإن أخطأ فى اجتهاده .

وأما هذا التابع فقد شابه انتصاره لما يظنه الحق إرادة علو متبوعه وظهور كلمته ، وأنه لا ينسب إلى الخطأ وهذه دسيسة تقدح فى قصد الانتصار للحق فافهم هذا فإنه مهم

عظيم واللّه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) (١) .

التاريخية :

« . . لا تحاسدوا . . » .

الحسد داء قديم قدم هذه البشرية دخيل على الأمة الإسلامية . عن الزبير بن العوام عن النبى ﷺ : « دب إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء » (٢) .

والقرآن الكريم يحدثنا عن أول حسد ؛ وأنه كان ذنب إبليس حيث حسد أبا البشرية آدم ــ عليه السلام ــ على ما أولاه من عناية وآتاه من نعم ميزه بها عن سائر المخلوقات ، فأبى السجود تعنتا وتكبرًا وأعلنها حربا شعواء لا هوادة فيها على آدم وأبنائه إلى يوم القيامة .

والقرآن نفسه يسجل حسد أبناء يعقوب لأخيهم يوسف عليه السلام فيقول : ﴿ **إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ** ﴾ [يوسف : ٨ ، ٩] .

وها هو ذا يصور لنا الطوائف اليهودية بالمدينة المنورة وهى تتربص ظهور النبى الجديد لتنقض على القبائل العربية المشركة ،وتمنّى نفسها بمبعثه الأمانى ، ولكنها فوجئت به من بنى هاشم ــ إحدى القبائل العربية ــ لا من بنى إسرائيل كما درجت على ذلك؛ فحملها الحسد على الكفر والجحود، قال محمد بن إسحاق عن ابن عباس: إن يهوداً كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول اللّه ﷺ قبل مبعثه ، فلما بعثه اللّه من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل : يا معشر يهود، اتقوا اللّه وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم ــ أخو بنى النضير ــ : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذى كنا نذكر لكم . وفيهم أنزل اللّه قوله : ﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة : ٨٩] . ويكفى فى كشف مكرهم قول الحق سبحانه : ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا** ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

---

(١) جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم ص ٣١١ .

(٢) رواه أحمد والترمذى .

الاقتصادية :

« ولا تناجشوا . . ولا يبع بعضكم على بيع بعض » .

ــ الأخلاق من أسس الاقتصاد الإسلامى حيث تقوم جميع المعاملات المادية من بيع وشراء ، وكراء ، ومزارعة ، ومساقاة . . . و . . و . . على الإخلاص والصدق والصفاء لا على الغش ، والمكر ، والتدليس ، وذى أحاديث النبى ﷺ تشهد بذلك: عن جابر بن عبد الله ــ رضى اللّه عنهما ــ أن رسول اللّه قال : « رحم اللّه عبدا سمحا إذا باع ، سمحا إذا اشترى ، سمحا إذا اقتضى » (١) . وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ مرّ على صبْرَة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً ، فقال : « ما هذا يا صاحب الطعام ؟» قال : أصابته السماء يا رسول اللّه ، قال: «أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ، من غشنا فليس منا » (٢) .

وعن عقبة بن عامر رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال: « المسلم أخو المسلم ، ولا يحل لمسلم إذا باع من أخيه بيعا فيه عيب ألا يبينه » (٣) .

وعن حكيم بن حزام رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدق البيعان وبينا ، بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » (٤) ، « اليمين الفاجرة منفقة للسلعة ممحقة للكسب » .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال :« التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء » (٥) .

وذلك لأن التاجر المسلم لا يسعى إلى الربح المادى المعجل فحسب بل ويضع نصب عينيه الربح فى الأخرى ، ويعمل على تحقيقه بامتثال الأحاديث النبوية السابقة ؛ لأن الخسارة الأخروية لا تعوض بأى ثمن بخلاف الخسارة المادية .

ــ التناجش أو بيع البعض على الآخر جريمة نكراء فى حق الاقتصاد العام للأمة ؛ لأنه يضعف القدرة الشرائية للفرد ، ويساعد فى التضخم النقدى ، ويشجع البضائع على حساب النوعية والإتقان والجودة حيث يصبح الرواج مضمونا للبضاعة التى عليها التناجش، والذى هو بمثابة الإشهار والإعلان ؛ لأن المتناجشين يلفتون الأنظار ، ويشدون الأسماع ويأسرون الأنفس للمادة التى عليها التناجش .

---

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه البخارى .
(٤) رواه البخارى ومسلم .
(٥) رواه الترمذى .

obeikandl.com

السياسية :

« لا يظلمه ولا يخذله » .

ـ إن الحاكم المسلم مسؤول أمام اللّه ـ عز وجل ـ عن أوطان المسلمين وديارهم وأموالهم ، وأعراضهم ، وحرماتهم ، فإن خذلهم فى شىء من ذلك فقد خان أمانته، ونكث عهده ، وغدر أمته . . . وهذا الخليفة عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه يضرب المثل فى تحمله لأعباء المسؤولية التى أنيطت به فيقول صراحة : لو عثرت بغلة بالعراق لسألنى اللّه عنها : لمَ لم تصلح لها الطريق يا عمر ؟ !

وكان التعدى على كرامة المرأة المسلمة فى دكان اليهودى هو الشعرة التى قصمت ظهر البعير وجلبت لبنى قينقاع الحصار والنفى والتهجير جزاء لخيانتها وغدرها . روى ابن هشام عن عبد اللّه بن جعفر بن المسور بن مخرمة عن أبى عوانة : (أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها ، فباعته بسوق بنى قينقاع وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها ، فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكوا منها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديا ، وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على يهود فغضب المسلمون ، فوقع الشرّ بينهم وبين بنى قينقاع فكان هؤلاء أول يهود نقضوا العهد الذى بينهم وبين رسول اللّه ﷺ) (١) .

ولقد كانت غيرة الحكام المسلمين على دينهم ورعيتهم وأراضيهم تبث الرعب فى أعدائهم وتجعلهم يحسبون للأمة الإسلامية ألف حساب ، لقد استغاثت امرأة بالمعتصم: وامعتصماه ! فاهتز وأرعد وأبرق ، وجهز جيشه ، وأنذر قائد الروم برسالة خالدة كان الأجدر بحكام العرب أن يتخذوها قاموسا للعزة والكرامة .ومما جاء فيها : من المعتصم إلى كلب الروم . . إلى أن يقول له : إنى آتيك بجيش أوله عندك وآخره عندى .

هؤلاء حماة الحمى ، أما تاريخنا الحاضر الأغبر ،فحدث بل اندب حظ الإسلام فى كثير من حكام المسلمين ، ذى فلسطين وبقية الأوطان تستصرخ ، تستغيث مذ أربعين سنة . . وهذا قدسنا الشريف وأعراضنا ودماؤنا . . وتلك لبنان ، وأفغانستان التى ترزح من وطأة الدّب وذيوله . .و . . و !

الحناجر بحت ، والكلمات فقدت مصداقيتها وحتى هذه نفذت ، فمن لهذه المقدسات ؟ ومن لهذه الساحات ؟ ومن لهذه الردة ؟ ومن لهذا الاستبداد ؟ ومن

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ / ٤٧ .

لأولئك الطغاة ؟ ومن لهذه الأقليات الإسلامية فى العالم : المهضومة ، المكلومة ؟ من يسترد كرامتها ، وأمنها ، وذاتيتها ؟ !

إن أمريكا والغرب برمته يقيم الدنيا ولا يقعدها ، ويراهن بأسلحته ، بنفوذه ، بدولاراته مقابل تخليص رهينة بلبنان ، لقد أضحى الرجل منهم كألف ، والألف منا كأف، للّه درّ من قال :

يسوس ساس سائس مسوس سياسة أساسها الفلوس

سياسة أساسها الفلوس سياسة الغربى هى الكبوس

ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم .

« . . لا تحاسدوا . . ولا تناجشوا . . » .

ليس من التحامل أبدا على الحاكم إذا حملناه قسطا من تبعات الحسد ؛ لأن الحسد لا ينشأ من أسباب نفسية فحسب ، بل ويعود أيضا إلى الواقع المعاش والمحيط الاجتماعى، فإذا سُدت الأبواب أمام الكفاءات ووضعت أمام السواد الأعظم ــ الذين لا جاه لهم ولا سلطان ولا وسطاء ــ العراقيل ، وانفرد الأغنياء المحظوظون بما أوتوا من أموال وعقارات دون أن يؤدوا ما عليهم من واجبات ، هنالك نفوس فقراء المال والإيمان، وتتحرك سُموم الحسد بوجود بواعثه، ولعل الحق سبحانه أشار إلى هذا فى سرده لقصة الثرى المغرور ــ قارون ــ : ﴿ **فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ [القصص : ٧٩] .

ولولا جور السلطان وفساد جهازه الإدارى وعدم تحكيمه لأمر ربه لما آل حال الأمة الإسلامية على الخصوص إلى الوضع الذى هى عليه الآن ؛ لأن ولى الأمر بمثابة القلب النابض ، فإذا صلح صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، وللّه در من قال : كما تكونوا يولى عليكم .

روى أن الوليد بن عبد الملك كان يحب العمران ، فكان الناس فى عهده يتساءلون بينهم عن العمران ويتنافسون فيه ، وكان أخوه سليمان ذا رغبة فى الأكل ، فكان حديث الناس فى عهده عن الطعام ، وكان سيدنا عمر بن عبد العزيز من أولى الصلاح والتقى ، فكان الناس على أيامه يتساءلون عن العبادة وتلاوة القرآن .

وانظر يرحمك اللّه إلى اهتمام عمر بن عبد العزيز بشؤون الأمة ، وتحرقه عليها فى وصف زوجته له حينما طلب منها عطاء ذلك: إن عمر ــ رحمة اللّه عليه ــ كان قد فرغ للمسلمين نفسه ، ولأمورهم ذهنه فكان إذا أمسى لم يفرغ فيه من حوائج يومه ، وصل

يومه بليلته إلى أن أمسى مساء وقد فرغ من حوائج يومه فدعا بسراجه الذى كان من ماله فصلى ركعتين ، ثم أقعى واضعا رأسه على يديه، تسيل دموعه على خديه، يشهق الشهقة يكاد ينصدع قلبه لها ، وتخرج لها نفسه حتى برق الصبح فأصبح صائما .

فدنوت منه فقلت : يا أمير المؤمنين ،أليس كان منك ما كان ؟ قال : أجل فعليك بشأنك وخلينى بشأنى . قالت : فقلت : إنى أرجو أن أتعظ ، قال : إذًا أخبرك : إنى نظرت فوجدتنى قد وليت أمر هذه الأمة أسودها وأحمرها ، ثم ذكرت الفقير الجائع ، والغريب الضائع ، والأسير المقهور ، وذا المال القليل ، والعيال الكثير ، وأشباه ذلك فى أقاصى البلاد وأطراف الأرض ، فعلمت أن اللّه سائلى عنهم ، وأن رسول اللّه ﷺ حجيجى فيهم ، فخفت ألا يقبل اللّه منّى معذرة فيهم ، ولا تقوم لى مع رسول اللّه ﷺ حجّة ، فرحمت واللّه يا فاطمة نفسى رحمة دمعت لها عينى ، ووجع لها قلبى ، فأنا كلّما ازددت لها ذكرا ازددت منها خوفا فاتعظى إن شئت أو ذرى .

« كل المسلم على المسْلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه » .

إن الوضع الذى آلت إليه الأمّة الإسلامية اليوم هو تحقيق لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم** ﴾ [الرعد : ١١] واللّه ما كانت إسرائيل ولا حلفاؤها لتتجرأ على حرمات المسلمين فتسفك دماءَهم بغير حساب لولا أن الطواغيت الذين تولّوا أمر هذه الأمّة فى فترات أليمة ولغوا فى دمائها ، واستحلّوا أرواح أبنائها ، وهذه دماء المسلمين زمن الحجاج تراق أنهارا قبل أن يتجاسر التتار على ذلك .

وتلك المضائق البحرية ــ كمضيق البسفور ــ شاهدة على التعسّف والجور حيث كان يؤتى بالرجل من فراش نومه ، ويثقّل بالحديد ثم يرمى فى عرض البحر ، وفى الصباح الموالى يرسل الحاكم تعازيه وتحياته إلى أولياء المقتول فتلهج الألسن بالدعاء والثناء.

وفى النصف الأوّل من هذا القرن ــ أى العشرين ــ مرت الأمة العربية بأحلك الأيام ، ومرّ الدعاة فيها بأقسى أشكال التعذيب والتّمثيل ، يعجز القلم عن وصفها ، ويندى الجبين من ذكرها !!

أين هى حرمة الدماء والأعراض ؟! يأيها الظلمة الأزلام أتقتلون رجلا لا لشىء إلا أن يقول : ربّى اللّه ؟ ! ﴿ **وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [البروج : ٨ ، ٩] .

وهل تنتظرونه أن يستأذنكم كما ظن فرعون من قبل ؟: ﴿ **قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ**

﴿ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الشعراء : ٤٩] .

أما كان الأجْدر بكم أن تتأسّوا بنبيكم عليه الصلاة والسلام :

ـ عن ابن مسعود رضى اللّه عنه قال : كأنى أنظر إلى رسول اللّه ﷺ : يحكى نبيّا من الأنبياء ضربه قومه، فأدموه، وهو يمسح الدّم عن وجهه، ويقول: «اللهم اغفر لقومى فإنّهم لا يعلمون » (١) .

ـ وعن أنس رضى اللّه عنه قال : كنت أمشى مع رسول اللّه ﷺ وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى فجذبه بردائه جذبة شديدة ، فنظرت إلى صفحة عنق رسول اللّه ﷺ وقد أثر بها حاشية الرداء من شدة جذبته ثم قال : يا محمد مُر لى من مال اللّه الذى عندك ، فالتفت إليه فضحك ، ثم أمر له بعطاء (٢) .

فهل استحل النبى ﷺ دم الأعرابى الأجلف ؟ وهل أرعد وأبرق وأقام الدنيا وأقعدها . . وأهلك الحرث والنسل . . وأباد وشرّد ؟ حاشاه ﷺ .

ألا أيها الحاكم أيا كانت درجة مسؤوليتك إنك تتحمل أمانة عظمى ، فاتق اللّه فى أمانتك وفى أمتك ، بل وفى نفسك أولا .

ـ « كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه » .

لقد اتخذت بعض أجهزة التعذيب : الاعتداء على الأعراض وسيلة من وسائل الاستنطاق . . فيؤتى بالرجل ويؤتى بقرينته أو كريمته ، ويعتدى عليهن علنا جهارا ، وهو يرسف فى الأغلال !

حقا إنها لأساليب جدّ حقيرة ، وأسلحة وضيعة كان الاستعمار الفرنسى فى بلادى وأعوانه ينكلون بحرمات بعض المجاهدين حينما يعجز عن الإمساك بهم أنفسهم .

يا قومنا : إنّنا لم نذل هذا الإذلال إلا بعد أن هانت علينا أنفسنا ، وخربنا بيوتنا بأيدينا . . واستحللنا حرماتنا ، وصدق كل من قال :

من يهن يسهل الهوان عليه ... فما لجرح بميت إيلام

إذا أنا خفت من أخوالى الروم خطة ... تخوفت من أعمامى العرب أربعا

وظلم ذوى القربى أشد غضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهنّد

وخير من هذا كله قول أصدق القائلين ـ اللّه رب العالمين : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي

(١ ، ٢) رواه البخارى ومسلم .

الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] .

« كل المسلم على المسلم حرام . . . ماله . . »

لسنا فى صدد ذكر المصادرات والمداهمات ، ولا نريدُ إحصاء الأراضى المغصوبة والدور المهدمة . . و . . و . . . فى هذا العالم الإسلامى ، بحجج واهية ، وفلسفات باطلة أفلست البلاد ، وقهرت العباد ، وخربت الاقتصاد . . ولسنا نريد مقابلة ما فعلته إسرائيل ، وما نحن فعلناه بأنفسنا ــ ولكننا أردنا فقط أن نلفت انتباه الحكام والأمراء وحواشيهم . . وأشياعهم ، وأصهارهم . . و . . إلى عدل الإسلام الذى يمثله خلفاء رسول اللّه ــ عليهم رضوان اللّه .

هذا عمر يأمر بهدم مسجد كان قد بنى على أرض يهودية ، وإعادتها إلى صاحبتها ، وذا حفيده ابن عبد العزيز ترد إليه رسالة من مصر بعثت بها فرتونة السوداء ــ مولاة ذى أصبح ــ تذكر فيها أن لها حائطا قصيراً وأنه يقتحم عليها منه فيسرق دجاجُها فكتب : (بسم اللّه الرحمن الرحيم . من عبد اللّه عمر أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذى أصبح : بلغنى كتابك وما ذكرت من قصر حائطك ، وأنه يدخل عليك فيه فيسرق دجاجك ، فقد كتبت لك كتابا إلى أيوب بن شرحبيل ــ وكان أيوب عامله على صلاة مصر وحربها ــ أمره أن يبنى لك ذلك حتى يحصنه لك ممّا تخافين ــ إن شاء اللّه ــ والسلام) .

وكتب إلى أيوب بن شرحبيل : (من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى ابن شرحبيل أما بعد : فإن فرتونة مولاة ذى أصبح كتبت إلى تذكر قصر حائطها ، وأنه يسرق منه دجاجها ، وتسأل تحصينه لها ، فإذا جاءك كتابى هذا فاركب أنت بنفسك إليه ، حتى تحصنه لها ، فلما جاء الكتاب إلى أيوب ركب ببدنه حتى أتى الحيرة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها وإذا هى سوداء مسكينة ، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين فيها وحصنه لها) .

وفى عقب هذا لا بأس أن نذكر بلا تعليق هذه المظلمة التى رفعت إلى ابن عبد العزيز ضد عامله على مكة عروة بن عياض بن عدّى ، حيث خرج عمر رضى اللّه عنه من مكة ، وخرج معه عروة عامله عليها يشيّعه حتّى نزل (بمر) فجاء رجل فقال : أصلح اللّه أمير المؤمنين ، ظلمت ولا أستطيع أن أتكلم ، فقال عمر : ويحه أخذت عليه يمين ثم قال : إن كنت صادقا فتكلم ، فقال : أصلحك اللّه هذا ــ وأشار إلى عروة ــ سامنى بمال لىّ وأعطانى به ستة آلاف درهم فأبيت أن أبيعه فاستعداه علىّ غريم لى ، فحبسنى فلم يخرجنى حتى بعته مالى بثلاثة آلاف درهم ، واستحلفنى بالطلاق إن

خاصمته أبدا ، فنظر عمر إلى عروة، ثم نكت بالخيزران بين عينيه فى سجدته وقال : هذه غرتنى منك ثم قال للرجل : اذهب فقد رددت عليك مالك ولا حنث عليك .

فقه الدعـوة

١ ــ « . . . لا تحاسدوا . . . » .

من أكبر المزالق التى تهوى بالدّاعية الغيرة القاتلة : (ومن الأسباب التى تؤدى إلى السقوط على طريق الدعوة الغيرة القاتلة من الآخرين وبخاصة من المتقدمين والمرموقين والموفقين والذين أوتوا نصيبا من لأهلية التى يفتقدها أولئك .

فالجماعات تضم بين صفرفها أصنافًا شتى من الناس ومستويات شتى من المؤهلات الشخصية ، والنفسية ، والعصبية ، والفكرية ، فالذكاء مستويات ، والثقافة مستويات ، والقدرة على الكتابة والخطابة مستويات . . وهذا ما يجعل العاملين متفاوتـين فى العطاء والتأثير والتفاعل وفى كل شىء ، وهو أمر طبعى وبدهى .

ولكن بسبب الغيرة أحيانا يرفض المحددون أن يلتزموا حدودهم ،فيعمدون إلى التسلق بشكل وبآخر فيجهدون أنفسهم بدون طائل . وقد يصاب بعضهم بصدمات نفسية تلقى بهم خارج الصف ، أو تدفعهم إلى الانتقام لأنفسهم ممّن يعتبرونهم سببا فى فشلهم . . وهنا قـد يقع المحـذور حيث يتجـاوز المـرء حدود كل شىء ــ متفلتا من كل المثل والقيم والأخلاق ــ لينال مـن أخيه الذى أضحى عنده عدوا لدودا ، لا ترتاح نفسه قبل أن ينتقم منه)(١) .

والتحاسد بين العلماء ليس بدعا ؛ لأنه إذا كان كل ذى نعمة محسود ، فإن العلم من أجل النعم ، غير أنه لا غرابة فى حسد الجاهل للعالم :

حســدوا الفتى إذ لم ينالوا سعْيه ... فالقوم أعداء له وخصوم

كضـرائر الحسـناء قلن لـوجـهـها ... حـسدا وبغضا إنه لـذميم

أما أن يحسد عالم عالما آخر فتلك هى الطامة ومردّ ذلك فى اعتقادى إلى : التطلعات الشخصية والحظوظ النفسية ، روى الرّاغب الأصفهانى فى كتابه (محاضرات الأدباء) هذه المقولة : هلاك العلماء بحسدهم .

وقال ابن عباس رضى اللّه عنه فى هذا المضمار : لا تقبلوا قول العلماء بعضهم على بعض ، فإنهم يتغايرون ، والغيرة فرع من الحسد إن لم تكنه .

---

(١) المتساقطون على طريق الدعوة : كيف ولماذا ؟ لفتحى يكن ص ١٠١ ، ١٠٢ .

والتاريخ يحدثنا أن كثيرا من المناظرات والحوارات التى كانت تنعقد مجالسها بحضرة الأمراء والخلفاء كانت تثير الحسد ويثيرها ،ولا بأس أن نورد بعضا منها لنتحسس عواقب الحسد الخطيرة :

أ ــ حدث الحريرى فى كتابه (درّة الغواص) قائلا : جمع الرشيد بين أبى الحسن الكسائى وأبى محمد اليزيدى ليتناظرا عنده ، وقد علم اليزيدى أنه يقصر عن الكسائى فى النحو ، فابتدره فى اللغة قائلا : كيف تقول : تمرة مذنبة ــ بكسر النون المشددة ــ أو مذنبة ــ بفتح النون ؟فلم يأبه الكسائى لقوله ، بل ظن أنه قال : بسرة ، فقال : أقول : مذنبه ــ بكسر النون ــ فقال : إذا كان ماذا ؟ قال : إذا بدا الإرطاب من أسفلها، وضرب اليزيدى بقلنسوته الأرض ، وقال : أنا أبو محمد اليزيدى ، وقد أخطأت يا شيخ ، التمرة لا تذنب ، وإنما البسرة تذنب .

فغضب عليه الرشيد وقال : أتكتنى بمجلسى وتسفه على الشيخ ، واللّه إن خطأ الكسائى وحسن أدبه أحب إلى من صوابك مع قبح أدبك ، فقال : يا أمير المؤمنين إن حلاوة الظفر أذهبت عنى التحفظ ، فأمر بإخراجه .

ب ــ وحكى ابن خلكان فى وفياته ما جرى مرة بين قطبى النحو : الكسائى وسيبويه فقال : ورد سيبويه إلى بغداد من البصرة والكسائى يعلم الأمين ــ ابن هارون الرشيد ــ فجمع هارون بينهما ، وتناظرا فى قول القائل : كنت أظن أن الزنبور أشد لسعًا من النحلة فإذا هو هى ، أو إياها . قال الكسائى : إياها ، وقال سيبويه : هى .

فأصر كل على رأيه حتى اتفقا على مراجعة عربى خالص لا يشرب كلامه شىء من كلام أهل الحضر .

وكان الأمين شديد العناية بالكسائى لكونه معلمه ، فاستدعى عربيا وسأله فقال كما قال سيبويه ، فقال له الأمين : نريد أن تقول كما قال الكسائى ، فقال : إن لسانى لا يطاوعنى على ذلك فإنه ما يسبق إلا الصواب ، فقرروا معه أن شخصا يقول : قال سيبويه كذا ، وقال الكسائى كذا فالصواب مع من منهما ؟ فيقول العربى : الصواب مع الكسائى، فقال : هذا يمكن ، وتم ما أرادوا .

فعلم سيبويه أنهم تحاملوا عليه وتعصبوا مع الكسائى ضده ، فخرج من بغداد مغموما وقد حمل فى نفسه لما جرى عليه .

وهكذا ضاع الحق ، وقيل : إنها كانت سبب وفاة سيبويه .

جـ ــ وجاء فى(درّة الغواص) للحريرى أيضا ، قال : لما شخص أبو عمرو

الجرمى إلى بغداد ثقل موضعه على الأصمعى إشفاقا من أن يصرف وجوه أهلها عنده، ويصير السوق له ، فأعمل الفكر فيما يغض منه ، فلم ير إلا أن يرهقه فيما يسأل عنه، فأتاه فى حلقته ، وقال له : كيف تنشد قول الشاعر :

قد كنّ يخبئن الوجوه تسترا فاليوم حين بدأن للنظار

أو حين بدين ؟ فقال له : بدأن . قال : أخطأت ! فقال : بدين ، قال : غلطت! إنما هو : بدوْنَ ، أى ظهرن ، فأسرها أبو عمرو فى نفسه وفطن لما قصده واستأنى به إلى أن تصدر الأصمعى فى حلقته واحتف الجميع به فوقف وقال له : كيف تقول فى تصغير مختار ؟ قال : مخيتير ، قال : أنفت لك من هذا القول ؟ أما تعلم أن اشتقاقه من الخير وأن التاء فيه زائدة ؟ ولم يزل يندد به إلى أن انفض الناس من حوله !

إذا كانت هذه طبيعة علاقة بعض العلماء ففى المقابل نجد الإيثار والمروءة والتواضع بين أهل التقوى والفتوى والورع ، ويكفى للدلالة على ذلك علاقة الأئمة الأربعة . . . فمنهم ترسم أخى الداعية سبيلك واستلهم من تاريخهم سبل التحرر من الشخصانية والذاتية .

٢ ــ « ولا تدابروا . . . » . من الوسائل التربوية التى جاء بها الإسلام هجر المعاصى وأهلها وأرباب البدع المغلظة تأديبا لهم وزجرًا لغيرهم ، ووقاية لضعفاء الإيمان من محاكاتهم واتباعهم . قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ** ﴾ [الأنعام : ٦٨] ،وقال عز من قائل : ﴿ **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴾ [النجم : ٢٩] وقال : ﴿ **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا** ﴾ [النساء : ٦٣] ، ﴿ **وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً** ﴾ [المزمل : ١٠] .

٣ ــ « لا تحاسدوا . . . ولا . . وكونوا عباد اللّه إخوانا » .

يا أهل الدعوة . . إن خطاباتكم وكتاباتكم فى حقيقة الأخوة الإسلامية وتبيان آثارها وفضائلها عمل جليل تحمدون عليه .

ولكن ألستم معى أن أمرًا كهذا يتطلب تقديم التخلية على التحلية ؟ ألا ترون أن رسول اللّه ﷺ نهى عن أسباب القطيعة أولا قبل أن يأمر بتحقيق الأخوة !

فهلا سعيتم نحو هذا السعى بمحو آثار الفرقة ومسببات الاختلاف ودواعى التنافر ؟ وهلا أمعن المسلمون النظر فى الأخوة التى لم تكن على مدارج التخييل ، بل كانت

حقيقة ملموسة ، يشهد بها الأعداء قبل إقرار الأصدقاء بين الأوس والخزرج ، بين المهاجرين والأنصار ترى هل جاءت من العدم ، وتحققت من اللاشىء ؟ أم كانت نتائج لمقدمات ، وحصيلة لجهود مكثفة وجهاد طويل ؟ !

وهل تثمر سنين الدعوة بموطنها الأصلى ــ مكة ــ إلا أخوة صادقة ؟ !

تطبيق

١ ــ كثيراً ما أدى التناجش بين أرباب الثراء إلى ضرب حصار اقتصادى خانق على صغار التجار والحرفيين أدى لإفلاسهم .

٢ ــ عجزت جميع الفلسفات والنظريات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى جربت خلال هذا القرن فى ربوع العالم العربى عن تحقيق الأخوة الصادقة والتكافل الاجتماعى ، واستقرئوا تاريخ هذه الأمة لتجدوا التناحر والتطاحن بين أبناء الوطن الواحد ، والقبيلة الواحدة ، والحزب الواحد .

٣ ــ إن الأخوة الإسلامية مظلومة اسما ومسمى ، ولم يشفع لها إلا قول الحق سبحانه : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ [الحجرات : ١٠] ، ولا قول رسول اللّه ﷺ : «المسلم أخو المسلم » .

وأصبح ذكر هذا اللفظ من قبيل الممنوعات دوليا ! وإن تعجب فعجب قول سفير العصابة الصهيونية بباريس عام ١٩٨٨ م فى تعليقه على الانتفاضة الإسلامية المباركة للشعب الفلسطينى : إن المحرك الأساسى لهذه الانتفاضة هم الإخوان المسلمون ، وهم لا يشكلون خطرا علينا فحسب ، بل وعلى كثير من حكومات العالم العربى ، ومن ثم دعى السفير هذه الأخيرة إلى مساندة إسرائيل فى ملاحقة الإخوان . العدو المشترك على حدّ قوله !!